المثقف

للنشر والتوزيع

❖ اسم العمل: سيد النسياد (رواية).

❖ الكاتب: طارق حنفي محمود

❖ دققه وحرره: إسلام م. صديق.

❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنـــة.

❖ رقم الإيداع: 2272 / 2021

❖ الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6797 –74 -1

9 789776 797741 >

إهداء

إلى قلوب بالخير عامرة لا ينقص منها عطاء، دافئة، لا ينال منها شتاء.

إلى كل من وقف بجوارنا لعلنا ننضج، ومن وقف في وجوهنا خشية أن ننضج.

إلى كل الأرواح التي جاءتنا لما علمت بالأمر، والتي تركتنا حين جاءها الأمر.

إلى هذه النفر الطيب الذي لا يلهيه الأمل ولا يغرنه بالله الغرور.

أهدي كتابي

طارق حنفي

بسم الله الرحمن الرحيم

"إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"

بسم الله الرحمن الرحيم

"حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ"

مقدمة

أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يكون الإنسان هو الخليفة في الأرض، وأعطاه السيادة على جميع المخلوقات، وكما وهب الإنسان القدرة على الاختيار وهبه الأسباب التي تساعده على ذلك، كالعقل والمنطق والقدرة على القياس وأخذ العظات، كما وهبه الهداية الذاتية وأنوار الفطرة السليمة، وبعث له الأنبياء، وأمدهم بالكتب السماوية لهدايته.. فمثل من يحاول سلبه تلك القدرة والسيطرة عليه وتوجيهه رغمًا عنه، أو إجباره على اختيار أشياء بعينها أو القيام بأفعال محددة، مثل المحارب لإرادة الله المعارض لفطرته حكمته.

وفي محاولة من الشيطان لإضلال الإنسان قام بتعليم نفرٍ من الجن وبعض البشر السحرَ، على أمل أن يصل في وقت ما إلى السيطرة عليه والتحكم في اختياراته، ثم توهَّم ذلك النفر من الجن أنه بالسحر يستطيع فرض سيادته على الأرض ويصبح سيدًا على الإنسان نفسِه، واجتمعوا معا في حربهم عليه.. لكنهم لم يدركوا الحقيقة المطلقة، ولم يروا الصورة الكاملة، فهم لا يحاربون الإنسان وحريته أو سيادته، بل يحاربون إرادة الله وحكمه، يحاربون سنَّته – سبحانه وتعالى – وحكمته وراء خلقه للإنسان، خليفته في الأرض.

إنها المعركة الطويلة بين أنوار العلم والرحمة، وظلمة الجهل والسحر والسحرة، وساحتها نفس الإنسان ذاته.

****

رحمة الله قد تتباين درجاتها من شخص لشخص، كما تختلف من محنة إلى أخرى، فتكون بحسب درجة إيمان ذلك الشخص أو ذاك، وبحسب شدة المحنة؛ رحمة الرحمن حين وسعت كل شيء فقد وسعتهم في جميع الدرجات، ما نراه وندركه وما لا ندركه، ما نفهمه وما لا نفهمه، تسع الإنسان بكل درجات عمق نفسه، فأينما وُجدَت محاولة الظلام للأذى والضرَّ توجد رحمة الله قِبَلها حتى لو لم يستطع الإنسان أن يراها أو يعقلها.

ولأن الأصل في الجود هو العطاء بدون انتظار للرد، كذلك رحمة الله تسري دون انتظار لاستيعابها من الإنسان المرحوم بها، حتى دون انتظار طلبه لها، خصوصًا في الأمور التي تمس حرية اختياره أو محاولة استعباده، فهي أمور تتطلب الرحمة العاجلة، مثلًا عندما يحاول أحد السفهاء تغيير برمجة ميزان الفطرة السليمة والعدل الذاتي داخل عبد من العباد، ويميله إلى الاضطهاد والظلم عن طريق الرصد أو غير ذلك، هنا تهب رحمة الله لنصرة ذلك العبد من قبل حتى أن يطلب هو ذلك.

ولأن عقل الإنسان لا يستطيع أن يستوعب كل شيء، فإن الإنسان لا يستطيع استيعاب رحمة الله وفهما إلا فيما ندر وفي مستويات معينة، وحين يفعل ذلك يؤوِّل أنوارها تأويلًا خاصًا به.. ولأن الرحمة قائمة على العلم فهي تعلم ما يريده ذلك الإنسان، وتسمح لخياله وروحه وقلبه أن يؤولوها كما يريدون.

****

لو استطعنا أن نُلبس المعاني جميعها ثوبًا ماديًا؛ معانى الرحمة والنور، معاني الظلم والسحر والأذى، معاني الحسد والغيرة.. لو استطعنا القفز داخل مملكة الإنسان، داخل نفسه وروحه، ورأينا تلك المعاني حية مجسدة وشاهدنا المعارك.. لو استطعنا أن نصف رحلة الهداية.

إلامَ تؤول الصورة، وكيف يصبح المشهد؟!

تمهيد

في عالمٍ غير العالم، يحوي سماءً غير السماء وأرض غير الأرض تجري أحداث روايتنا، عالم يحيى فيه الإنسان وفق قوانين مختلفة، تحكمه وتتحكم في مصيره.. ما هذا العالم؟ وما علاقته بالإنسان؟ هل هو بالفعل عالم غريب، أم....؟

لنرى ونحكم بأنفسنا.

****

كان الناجون ينسجون حولها الروايات، يتحاكون بها سرًا داخل الكهوف، وهمسًا حول النيران؛ يحاولون أن يستوعبوا ما حدث وكيف حدث ولماذا، أو ربما هم لا يريدون أن ينسوا ماضيهم.

روايات ظلوا يتناقلونها جيلًا بعد جيل حتى أضحت كالأساطير والقصص الشعبية، لم تسطيع أيٌّ منها أن تجيب على بعض الأسئلة: "كيف حدث الطوفان؟ ولماذا اختفت الحضارة على الأرض؟ وكيف نجى البعض منهم؟".. الغريب في الأمر أن معظم الناجين كانوا من الصبية والأطفال دون الكبار.

يحاولون في كل مرة أن يصوِّروا المشهد، كيف أصبح مع ما تبقى من الماء الذي غمر سطح الأرض، وكيف استحالت الحياة على سطحها.

يتحدثون عن أصوات كانت تتكرر باستمرار، يسمعها الجميع تأمر الناجين أن يلجؤوا إلى الجبال حيث أعدت الأسياد لهم بيوتًا وملاجئ.. استمرتْ الأصوات سنوات طوال حتى أذعن لها الكبار وشبَّ على طاعتها الصغار.

وانتشرت الكثير من الأقاويل عن الأسياد أنفسهم، قيل: "إن من فرط حب الأسياد للإنسان جاؤوا لينقذوهم من غضب بعض الآلهة التي حاولت أن تفنيهم تماما، فصنعوا لهم بيوتًا منحوتة – بفضل قوتهم العظيمة – كالمغارات في الجبال ليحيوا فيها، وقسموها من الداخل غرفًا؛ يستخدم بعضها للنوم وواحدة كحمام لقضاء الحاجة والاستحمام الذي نَدُر لقلَّة الماء، وغرفة كبيرة في وسط الكهف ملحق بها ركن به بعض الأدوات المُصنَّعة من نوع خاص من حِجارة الأسياد، التي تستخدم في تجهيز وتناول الطعام، الذي يستخدمون النار لطهيه، ويعتمدون في الإضاءة على الشموع التي برعوا جميعًا في صناعتها.. وبجانب مدخل كل كهف يقبع تمثال صنعه الأسياد ببراعة".

كان الجميع، رجال ونساء وصبية وأطفال يرتدون نفس الملبس المنسوج من قماش سميك ومكون من قطعتين، قميص وسروال بنفس اللون الأسود نهارًا، وعندما يأتي الليل يستبدلونه بمثيله ولكن بلون أبيض.

وبعد أن استقر الناجون في المغارات شرَّع لهم الأسياد بعض الشرائع لتنظم العلاقات فيما بينهم.. حتى الزواج، فالأسياد هم من يقولون بوجوب زواج أحدهم، ويختارون له زوجه، يسمع أحدهم قبل نومه صوتًا يخبره باسم عروسه ومكان

الكهف الذي تعيش فيه، وفي نفس الوقت تقريبًا تسمع هي اسمه ومكان كهفه، والتطابق بينهما هو العلامة، وهم أيضًا من يحددون موعد الزواج، ثم ينتقل العروسان إلى كهف جديد أُعد خصيصًا لهما، وفي العموم كان الزواج قليلًا والإنجاب نادرًا.

****

وكما يحكي تاريخ الناجين، تلت تلك المرحلة مرحلة الأحكام والقوانين التي تحدَّد علاقة الإنسان بالأسياد أنفسهم، وما يتوجب عليهم فعله لينالوا رضاهم، وما لا يجب فعله وإلا العقاب.

كانت الأحكام أشبه بالمقدَّسات التي يجب أن يعيها ويحفظها الجميع؛ فعمد الأسياد إلى توزيع كتاب يحوي المقدسات وشرحها على الكهوف جميعًا، ولعدَّة سنوات بعدها أخذت الأصوات تردد تلك الأحكام على مسامع الجميع حتى صارت بالنسبة إلى الناجين هي الفطرة.. أو كما كانوا يقولون: "حتى لا يتكرر ما حدث، ولمصلحة بقاء الإنسان وضع الأسياد الأحكام السبع أو المقدسات، أو بحسب ما يحلو للبعض أن يطلق عليها القوانين السبعة في الأرض".

الجزء الأول

كتاب الحكمة

في الكهوف نحيا نطيع أسيادنا أحكامهم تسري فينا وتحكمنا

الفصل الأول

عمَّ الأنس قلب "خالد"، وهو يجلس بجوار أُمِّه وجَدِّه حول النار أمام الكهف، تمامًا كما يحدث في كل مرة يفِد فيها الجد لزيارتهم.. اجتمع له الأنس والدفء الذي تبعثه النار في جسده؛ فتمنى أن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد.. كان غارقًا في بحر الدفء والأنس خاصته، حين ألقى عليه جدُّه نظرةً حانية فخورة سحبه بها خارجًا وهو يقول له:

– كل عام وأنت بخير.

– وأنت بخير، يا جدي.

ثم غمز له الجد بطرف عينه، ذكرته بتلك الواحدة حين أخبره أن يبقي أمر عدم سجوده للتمثال خارج كهفه سرًّا؛ فابتسم رغمًا عنه.

رغم القلق الذي يعصف بها حاولت الأم أن تبتسم وهي تتطلع إلى أبيها، وفي عقلها يدور العديد من التساؤلات والأفكار: "كيف وافقت على إقامة مثل هذا الاحتفال؟!"، كم تتمنى أن يمر عيد ميلاد ابنها على خير، سيتم اليوم سبعةَ عشرَ عام مما يعني أن تكليفه من قبل الأسياد سيبدأ بعد عام؛ وهو أكثر ما يقلقها، كم تتمنى أن يرضى عنه الأسياد"، أطلقت تنهيدة حارة غادرت على إثرها بعض الأفكار عقلَها، وانسابت كلماتٍ من بين شفتيها فقالت:

– ماذا يخبئ القدر له؟

التفت إليها "خالد" يسألها:

- ماذا تقولين يا أمي؟

عادت الأم لصمتها والقلق يطل من عينيها؛ مما جعل الجد يسألها بجدية واضحة:

- ماذا هناك؟

- لقد اقتربت الساعة من الرابعة والنصف ولم يأت أحدٌ بعد.

التفتت إلى "خالد" تسأله:

- هل ذهبت إليهم جميعًا؟:

- لم أترك أحدًا منهم.

- وماذا قلت لهم؟

- كما طلبت مني، كنت أميل على أذن أحدهم وأهمس له بأن أمي تدعوك لحضور حفل عيد ميلادي غدًا، وطلبت منهم أن يأتوا في تمام الرابعة والنصف.

- هل ذهبت إليهم جميعًا؟

تنهد وهو يقول:

– لم أترك منهم أحدًا.

ابتسم الجد، وحاول تلطيف الأجواء فقال:

– إنهم ستة كهوف فقط، كما تعلمين فإن كل مستوى من الجبل يحتوي عل سبعة كهوف.

استفسر "خالد":

– ماذا تعني؟

– لقد قسم الأسياد الجبل إلى ستَّةِ مستويات بحيث يحتوي كل مستوى على سبعة كهوف.

بدا أنه سيكتفي بذلك إلا أنه عاد يتكلم وقد زالت الابتسامة عن وجهه:

– إنها مجموعة من الجبال التي تمتد في شكل دائري لتحيط بعين النار.

نهضت الأم فزعة،؛ لتلقي نظرة على عين النار، ثم قالت بصوت غلب عليه الخوف:

– بالرغم من وجودها على الأرض وسط ما تبقى من ماء الطوفان إلا أنها لا تنطفئ أبدًا.

أكمل الجد من حيث انتهت:

– ومع كبر حجمها ولسان نارها الذي يكاد أن يعانق السماء فإن أوضح رؤية لها هي من هنا، وبالأخص عندما تغيب الشمس.

صمت لحظات ارتسم فيها الضيق على وجهه ثم قال:

– نفس الوقت الذي يُسمَع فيه صَوت دويِّ الانفجارات يأتي من داخلها، كما أن الشكل الدائري الذي تتخذه الجبال من حولها يتيح لساكني الكهوف جميعًا أن يروها بوضوح من أماكنهم.

سمع الجميع في هذه اللحظة صوت أحدهم وهو يقول بفرحة:

– اشتقت إليك حقا يا "حافظ".

التفت الجميع إلى مصدر الصوت، سُرَّتْ الأم لرؤية الرجل العجوز صديق أبيها منذ أمد بعيد، و"حافظ" يقول في ود:

– مرحبا بك يا "درويش".

حيا القادم الجميع ثم جلس على إحدى الأحجار الموضوعة أمام مدخل الكهف وهو يلهث من فرط التعب، ثم تطلع إليهم قائلاً بجدية واضحة:

– هل جننتم؟ لماذا تقيمون مثل هذا الاحتفال؟ إنهم يعرفون كل ما نفعل، يسمعون ويشاهدون.

قاطعه "خالد":

– من تعني؟

التفت إليه "درويش"، ثم قال مستنكرًا السؤال:

– الأسياد بالطبع.

صمت الجميع بعدها، لكن الصمت لم يطل كثيرا فقد حضر أحد المدعوين.. توافدوا بعدها تباعًا؛ قامت الأم ترحب بهم وتدعوهم إلى دخول الكهف، دلف الجميع إلى صحن الكهف، بمجرد أن استقر آخر المدعوين داخلًا أطفأت هي النار الموقدة في الخارج، ولحقت بهم إلى الداخل وأشعلت أخرى أقل حجمًا، ثم أحاطتها ببعض الأحجار.

****

على غير المتوقع، حضر عددٌ كبيرٌ من الضيوف؛ مما جعلها تهمس في نفسها: "خيرًا فعلت أنا وخالد بتجهيز المكان لاستقبالهم، وإلا ما اتسع لهم جميعًا".. تطلع خالد بدهشة إلى الرهط الذي حضر لتهنئته بعيد ميلاده؛ لقد اكتظ المكان بكمٍّ من الناس لم يره مجتمعًا معًا من قبل.. أحصى أربعة من كبار السن وخمسة رجال وست نساء غير أم خالد، وأربعة من الأولاد والبنات وطفلين، أسر في نفسه: "لقد أحسنت أمي تنظيم الجِلسة بالفعل".

احتل كبار السن والرجال المقاعد المنحوتة من الأحجار، تركوا واحدًا للأم لكنها تركته بدورها وجلست مع باقي النساء على حصيرة كبيرة صنعتها بيديها، وجلس بعض الصبية والأطفال وانتشر البعض الآخر يمرح هنا وهناك.

تزجه "خالد" إلى مدخل الكهف ووقف أمامه من الداخل، يتطلع إلى الضباب الخفيف الذي بدأ ينتشر في كل مكان مما يحجب بعض التفاصيل، ويدفع الناظر للاهتمام بالصورة الكلية أكثر.. القمر مكتملًا بلونه القرمزي في مشهد بديع ربما يدوم حتى الساعة الثامنة، قبل أن يغيب وتتحول السماء إلى اللون الأحمر القاني، ثم تضرب السماءَ الصواعقُ التي تنذر بسقوط مطر أحمر، يذيب الأجساد بمجرد أن يلامسها، هو لم يره بعينه قط، بل عرفه من حديث أمه التي حذرته منه كثيرًا.

كان الجد مندمجًا في حديث ودي مع "درويش"، ثم حانت منه التفاته إلى مدخل الكهف، هاله منظر حفيده الذي يقف شارد الذهن يتطلع إلى شيء ما في الخارج، اتجه إليه ووضع يده على كتفه في رفق مما جعل خالد "يلتفت" إليه مبتسمًا، فسأله الجد:

- ماذا هناك؟

لم يجبه "خالد"، بل عاد يتطلع إلى نفس النقطة بالخارج، التفت الجد إليها بدوره وما إن وقعت عيناه عليها قال:

- آه، عين النار.

نهض الجميع ولحقوا بهما ينظرون إلى عين النار المترامية على مرمى البصر، ولسان نارها يتراقص ويرتفع عاليًا، لم يلبث شعور الفزع أن صاحب نظراتهم في كل مرة ينطلق منها الصوت الأشبه بالانفجار.

اشتدَّت لسعة البرد بعد أن بدأت خفيفة؛ مما جعلهم يعودون أدراجهم سريعًا إلى حيث توجد مجالسهم؛ يلتفون مرة أخرى حول النار الموقدة داخل الكهف، كم أحضرت لهم الأم مشروبًا ساخنًا أعدته احتفالًا بذكر ميلاد ابنها، ارتشفوه في سرعة علَّه يبعث الدفء في أجسادهم.. اقترب بعض الأولاد في أثناء مرحهم من باب الكهف، فنهضت إحدى النساء فجأة، وعلا صوتها الذي غلب عليه الخوف قائلة:

- لا تغادروا الكهف.

شعرت بالخجل من نبرة صوتها، مما جعلها تتنحنح قبل أن تحاول تبرير نفسها قائلة:

- أنتم تعلمون ما يمكن أن يحدث.

تطلع الجميع إليها وهزوا رؤوسهم علامة الفهم.. انتهز واحد من الصبية الفرصة وتطلع إلى جد "خالد" في احترام وحب واضحين ثم قال:

- جدي "حافظ"، لماذا لا تحكي لنا الحكايات عن الحياة قديمًا؟ كيف كانت قبل أن يأتي الطوفان، وقبل أن يقرر الأسياد النزول على الأرض والعيش بيننا؟

الفصل الثاني

كان الجد حلو اللسان طيب المعشر محبوبًا من الناس جميعًا، وراويًا جيدًا للقصص والحكايات، وهو ما يجذب الصبية والأطفال، خصوصًا مع تلك الحقيبة الجلدية الكبيرة التي يحملها على كتفه ويأخذها معه إلى أيِّ مكان يذهب إليه، والمليئة بالأشياء التي كانت تدهشهم كثيرا عندما يخرجها ويريها لهم.

ابتسم الجد فبدت ابتسامته باهتة، لكن أحدًا لم يلاحظ ذلك؛ لقد بدأ شعور بالتشويق يزحف عليهم فحبسوا أنفاسهم وترقبوا بداية حديثه.. جال بينهم ببصره ثم قال: "لا أحد يعلم على وجه التحديد متى أو لماذا قرر الأسياد النزول على الأرض، وهل كانوا يعيشون بيننا من قبل دون أن نراهم أم لا! لكنهم ظهروا، ومع ظهورهم جاء الطوفان، طوفان عظيم هدم الحضارة على الأرض.. ثارت المياه وارتفعت عاليًا، حتى غطت جميع البيوت والأبنية، وعندما انحسرت هدمتها كلَّها، وجرفت ما تبقَّى منها في طريقها"

سأله أحد الصبية بصوت لاهث من فرط الحماس:

– ما البيوت؟ وما هي الأبنية؟

ابتسم الجد ثم قال: "كان البشر قديمًا يسكنون السهول والأودية على الأرض نفسها، وليس داخل الجبال كما هو الحال الآن، ما زلت أذكر بعض المشاهد من طفولتي"

شرد ببصره وهو ينظر إلى اللا شيء، ثم أكمل: "مشاهد قد علقت بذهني ولم تفارقه، أرى في بعضها والدي يرتدي ملابس مختلفة عن تلك التي نرتديها الآن، يحملني في حب وأنا أنظر إليه في سعادة وأمان، أراه يدور بي حول نفسه ضاحكًا مِلءَ فيهِ بصوتٍ عالٍ.. أذكر أنه كان يقف على أرضٍ خضراء أمام بناء كبير أبيض لا أتذكر من تفاصيله الكثير"

ثم تنهد بحسرة وقال: "أتذكره أيضًا عندما كان يعلمني القراءة والكتابة بلغتنا"

نفض رأسه سريعًا، ثم عاد يتطلع إليهم قائلًا: "في ذلك الوقت كان البشر يقيمون منازل وأبنية عالية"

التفت الجد إلى نفس الصبي وسأله:

- ما اسمك يا بني؟

- اسمي "نجيب".

- هل تعرف كيف تشكل التراب ليأخذ شكلًا ما يا "نجيب"؟ شكل كرسي على سبيل المثال.

– نعم، فأنا أضع الماء على التراب وأخلطه، ثم أصنع الشكل الذي أريد قبل أن أتركه ليجف.

برقت عينا الجد، ونهض فجأة ملوحًا بيديه عاليًا قائلًا بصوت قوي غلب عليه الحماس:

– أحسنت يا بني، هكذا كانوا يصنعون المباني، وإن كانت المباني أضخم وأقوى.

تمتم الصبية جميعًا "هممممم".

تطلع الجد إلى أعلى رافعًا يديه، وعندما خفضهما ببطء ابتسم وقال:

– كما كان هناك ماء ينزل من السماء ويسمى مطرًا، ماء عذب يصلح للشرب وللزراعة.

أومأ كبار السن خاصة برؤوسهم، وقبل أن يسأله أحد الصبية عن معنى كلمة الزراعة استكمل الجد كلامه: "في ذلك الوقت كانت الكتب تحوي العلوم والمعارف، لكن.. مع ظهور الأسياد أُستبدل الكلام الذي يشرح العلوم والمعارف بكلام آخر يشرح الأحكام"

تكلم صبي آخر بلا إذن، وبصوت خافت غلب عليه التردد والخوف سأل: "هل الأسياد هم من صنعوا الطوفان واستبدلوا الكلام في الكتب؟"

قام الجميع بزجر الصبي، وهم يضعون أصابعهم على أفواههم، وفي نفس الوقت تقريبًا قالوا: "صه"، ثم صمتوا وتطلعوا إلى بعضهم البعض؛ فبداخل كل واحد منهم يتردد السؤال نفسه: "هل الأسياد هم المسؤولون عمَّا آلت إليه الحياة على الأرض؟"، وقبل أن يسترسل الجميع في أفكارهم أكثر.

تكلم الجد بصوت عال غلب على صوت أفكارهم، مما جعله يستحوذ على انتباههم مرة أخرى: "لقد طرح الكثيرون هذا السؤال من قبل، والإجابة التي نعرفها تعود لرجل سأل نفس السؤال، لكنه سأله مباشرة إلى الأسياد أنفسهم.. عندما ظهر أحد الأسياد للرجل سأله هذا السؤال تحديدًا، وأجابه السيد بقوله: لولانا لهلكت الأرض، نحن لم نصنع الطوفان ولكننا أنقذناكم منه، وصنعنا لكم الكهوف في الجبال لتحيوا فيها، حتى إذا جاء طوفان آخر تكونوا في أمان منه ولا تهلكون"

صمت الجد لحظات وهو يتفرس في وجوههم ثم أضاف: "ومع الطوفان وبين غرق الكتب ومحو الكلام، انتهى ما يسمى بالعلم الذي في الكتب، ومع غرق العلماء أنفسهم انتهى ما يسمى بالعلم الذي في الصدور"

ثم خفض بصره يتطلع إلى أسفل قائلًا بحسرة: "وهذا ما جعل الأسياد يضعون القوانين؛ لتضمن لنا البقاء، وتنظم لنا الحياة، ولسنين طوال أخذوا يرددونها بطريقتهم الخاصة على مسامعنا ليل نهار، وعندما تأكدوا من استيعاب الجميع لها توقفت أصواتهم، وإن أبقوا في كل بيت كتاب يحوي الأحكام وشروحها"

صمت الجد لحظات شحذ الجميع فيها انتباههم، وينظرون إليه في ذهول، فتلك المرة الأولى التي يسمعون فيها مثل هذا الكلام، بما فيهم كبار السن.

ثم نظر إليهم قائلًا بصوت غلبت عليه المرارة: "استبدلوا بالمكتوب الذي كان في الكتب قوانينهم السبع، حتى اضحى كل المكتوب فيها كلام يشرح القوانين، وأمروا الجميع أن يحفظوها عن ظهر قلب.. ثم بالتدريج قل عدد ساعات النهار وزادت ساعات الليل، ليطول معها النوم، حيث يجب النوم كما تعلمون في تمام الساعة الثامنة مساءً"

غلب على صوته التوتر وهو ينظر إليهم ويضيف: "بالمناسبة لقد اقتربت الساعة من السابعة و.."، فجأة دوى صوت عال يصم الأذان، اقشعرت معه الأبدان؛ لقد عاد الأسياد للكلام.

****

قال الصوت بنيرة عالية تصم الأذان: "حتى لا يتكرر ما حدث، ومرة أخرى لمصلحة بقاء الإنسان نؤكد نحن الأسياد على المقدسات السبع..

أولًا: حكم من الأسياد، على الجميع أن يعيشوا داخل الكهوف، لا يهبطون إلى الأرض أبدًا.. وسيجد كل منكم الماء والطعام أمام كهفه، الماء سيكون بقدر ملء صندوق حجري محدد يكفي لسبعة أيام، أما الطعام فيوضع في صندوق حجري آخر يحتوي عدسًا وفولًا وثومًا وبصلًا، وسيوزع بمقدار يكفي السبعة أيام أيضًا..

ثانيًا: حكم من الأسياد، على من يبلغ سن التكليف أن يسجد للتمثال أمام كهفه عند الخروج منه وعند الدخول.. فكل من تعدَّ سنُّه الثمانية عشر عام، عليه أن يسجد لتمثاله في كل مرة يخرج فيها من كهفه، وحين يعود..

ثالثًا: حكم من الأسياد، على الجميع أن يكونوا في حدود كهفهم قبل غروب الشمس، على أن يكونوا داخل الكهف نفسه قبل السابعة والنصف مساءً.. ومن يخرج صباحًا بإذن منا ويترك الكهف، عليه أن يكون في حدود كهفه قبل الرابعة والنصف وهو موعد غروب الشمس، على أن يكون داخل الكهف قبل أن يختفي القمر بنصف ساعة وإلا طاله المطر الأحمر المميت".

رابعًا: حكم من الأسياد، على الجميع أن ينام في تمام الثامنة مساءًا..

خامسًا: حكم من الأسياد، على الجميع الاستيقاظ في تمام السابعة صباحًا.. ننقل بطريقتنا الخاصة من وجب عليه العمل من المكلَّفين من الرجال إلى مكان عمله في الثامنة صباحًا.. كما يستوجب عليهم الانتظار أمام الكهوف مرتدين أقنعة الغشاوة، ونحن من نعيدكم كلًا إلى كهفه في الرابعة تمامًا..

سادسًا: حكم من الأسياد، على من يبلغ الثمانية عشر عام أن يضع حجرًا أحمر أمام كهفه، وذلك في الصباح التالي لإتمامه إيّاهم.. قد أعطينا لكل كهف عددا من الحجارة الحمراء يحميها سكانه بحياتهم، وعنما يبلغ أحدكم سنَّ التكليف يختار له الأسياد العمل المناسب، حسب علمهم وخبرتهم ونظرتهم إليه..

سابعًا: حكم من الأسياد، ممنوع على أي أحد أن يروي أحلامه مع أحدٍ آخر حتى مع أفراد عائلته".

وصمت الصوت وصمت معه الجميع، وطال الصمت.

الفصل الثالث

كانت أم "خالد" هي أول من تجرأ على الكلام، قالت:

– لكن لماذا؟

التفت إليها الجميع في آلية دون أن ينطق أحدهم كلمة واحدة، ثم تجرأ أحد الصبية على الكلام، وقال:

– ماذا تقولين، يا خالتي؟

بدت شاردة الذهن وهي تقول:

– لماذا عادت الأصوات مرة أخرى؟

ضاقت عينا "الجد" وهو يفكر في عمق.. قطع أفكاره صوت أحد كبار السن الذي قال بصوت غلبت عليه الرهبة: "ما حدث الآن يذكرني بما كان يحدث في بداية الأمر، كانت تُسمع أصوات الأسياد دون أن يراهم أحد، تكرر هذه الأحكام السبع على مدار الساعة حتى حفظها الجميع عن ظهر قلب".

ساد الصمت فترة إلى أن قطعه "درويش": "لقد نشأت الأجيال مفطورة عليها وعاشت في كنفها خائفة من مخالفتها وإلا اختفى المخالف من الوجود ولم يعرف عنه شيء، كما حدث للكثيرين من قبل.. كما حاول بعضهم الثورة على القوانين

ومخالفتها، فكانت النتيجة أن ذاب جسد أحدهم أمام أعين الجميع، ثم اختفى الآخرون ولم يعودوا بعدها أبدا؛ وأدرك الجميع بعدها وجوب الالتزام بالقوانين وطاعة الأسياد".

أضاف الجد في نبرة مشوبة بسخرية: "أو ربما منشأ الطاعة هو الخوف من غضب الأسياد؛ فربما يتركوننا ويحدث طوفان جديد يقتل الجميع ويهلك الحياة على الأرض".

صمت بعدها، وصمت معه الجميع، ثم عاد يضيف بصوت ظهرت عليه السخرية واضحة: "أو ربما طمعًا في أن ينال أحدهم رضا الأسياد، ويذهب معهم بعيدًا ليحيا بينهم ويكون سيدا".

قال واحد آخر من كبار السن: "على هذا المنوال تناثرت الروايات هنا وهناك، حتى بدأت الأمور رويدا في الاستقرار، فتوقف البشر عن محاولتهم السباحة ضد التيار، ومع وجود ذلك الدخان الذي يغزو عقول المكلَّفين قبيل الثامنة مساءً كانوا ينامون ويحلمون، وفي السابعة صباحًا كان هذا الصوت الذي يدوي في آذانهم يجعلهم يستيقظون، وعندما يستعد أحدهم للخروج يضع على عينيه قناع الغشاوة كما أطلق عليه الأسياد".

التقط "درويش" طرف الحديث وهو يضيف: "سواء هو أو أي فرد من عائلته لابد أن يضع هذا القناع وهم يسجدون خارج الكهف، ثم يقف المكلَّف منهم في

الخارج وحده ينتظر من يُقلَّه إلى مكان عمله، والهلاك كل الهلاك لمن تسوِّل له نفسه أن ينظر إلى هؤلاء الذين جاؤوا لنقله".

نهض الجد فجأة يتأمل الجميع قبل أن يقول بلهجة صارمة لا تقبل النقاش: "لا بد أن تذهبوا الآن للنوم، إنها القوانين السبع".

في الحقيقة، هو يحاول أن يتهرب من الاستمرار في الحوار عن الأسياد والأحكام، فقد كان في مزاج سيء، وإن لم يُرِدْ أن يظهر عليه أثره في أثناء الاحتفال بعيد ميلاد "خالد".. همَّ الجميع بالانصراف، فمال الجد برأسه على "درويش" وقال بصوت خافت: "لا تذهب، فأنا أريدك في أمر ما".

****

ما إن اطمئن "درويش" لذهاب الجميع حتى تطلع بقلق واضح إلى "حافظ" قائلًا:

- ماذا هناك؟

ظن "حافظ" أنه سيكتفي بهذا فهم بإجابته، لكنه لم بفعل و"درويش" يكمل في سرعة:

- إنك تبدو مختلفًا، لماذا تبدو قلقًا هكذا، هل بسبب عودة الأسياد لتلاوة الأحكام؟

أشار إليه أن يصمت ثم مال عليه ليخبره أنهما سيتحدثان بعد أن تذهب ابنته وحفيده إلى النوم.

قد إليهما "خالد"، ثم وقف أمامها وقال:

– أمي ذهبت إلى النوم، لكن لماذا عاد الأسياد للكلام مرة أخرى يا جدي؟

ثم تطلع إلى "درويش" يسأله:

– ألن تذهب إلى كهفك لكي تنام يا عم "درويش"؟!

نظر "حافظ" إلى "درويش" نظرة ذات مغزى، ثم التفت إلى حفيده وهو يفرك يديه قبل أن يقول:

– أظنك لا تعلم أنه عندما يتجاوز عمر الواحد منا الستين عامًا يسقط عنه الحكم بالنوم في الساعة الثامنة، وكذلك الأطفال والصبية دون الثمانية عشر عامًا.

تطلع إلى جده في حيرة، مما يوحي بأنه لم يكن يعلم ذلك من قبل، ولا يزال يعتقد أن الجميع لا بد أن يناموا في الثامنة تمامًا، تحولت دهشته إلى ضيق تجلَّى في صوته وهو يقول:

– لماذا لم تطلعونا على الحقيقة في حينها؟ وكنتم تجبروننا على النوم في الثامنة تماما!

أجاب "درويش" في سرعة:

– لكي تتعودوا على الأمر، لا يوجد مجال للخطأ مع الأسياد.

بدت الجدية على وجه الجد وهو يقول:

– هناك أمور كثيرة لا تعرفها ولم أخبرك عنها، فأنت ما زلت في السابعة عشرة، وكنت أرجئها حتى تبلغ سن التكليف.

ثم صمت لحظات قبل أن يضيف بصوت مليء بالشفقة:

– اذهب الآن إلى النوم، وسوف نكمل كلامنا في الصباح.

ما أن ذهب "خالد" إلى غرفته بالكهف حتى سأل "درويشُ" بصوت قلِق:

– ماذا بك، أيها العجوز؟

خفض "حافظ" صوته قائلًا:

– دعنا نتحدث في الخارج إلى أن يناما بالفعل.

خرجا وجلسا على أحجار تشبه المقاعد في الخارج، التفت "درويش" إلى حافظ يحثه على الكلام.

قال حافظ:

– لقد علمت من بعض المصادر أن الأسياد على وشك تعديل حكم من أحكامهم السبعة، ولا أدري ما علاقة هذه بعودتهم لتلاوة الأحكام على الجميع، ولا تسألني كيف نما إلى علمي هذه الأمر.

قالها في شرود غير مصدق أنه استطاع أن ينطق بها أخيرا، فقفز "درويش" من مكانه في قوة لا تتناسب وسنه مكررًا كلام "حافظ" وعيناه متسعتان عن آخرهما:

– ينوون أن يعدلوا حكمًا من الأحكام السبعة! إنه شيء لم يحدث من قبل أبدًا.

– اهدأ واجلس.. أنا لم أطلعك على مخاوفي كلها بعد.. أخشى أن يكون هذا التعديل بسبب "خالد".

ساد الصمت بعده تمامًا، حتى أن "حافظ" كان يستطيع سماع صوت دقات قلب صديقه، بعد فترة من الصمت هدأ فيها "درويش" وسأل بصوت حذر:

– أنا بالفعل لا أفهم شيئا، هل تشرح لي مرة أخرى؟

أجاب "حافظ" بسؤال:

– ما الذي تقوله القوانين حين يبلغ أحدهم الثمانية عشرة؟ وكيف تسرى الأحكام فيه؟

نظر إليه "درويش" نظرة ضيق ذلك بأنه أجاب عن سؤاله بسؤال، لكنه تجاوز هذه النقطة سريعًا، فكر قليلًا ثم قال ببطء:

– كما تعلم، مع بلوغ أحدهم سن التكليف يبدأ بأخذ دوره الطبيعي في خدمة الأسياد، بحسب اختيارهم هم لهذا الدور؛ فهم يمتلكون من المعرفة والحكمة ما يؤهلهم ليروا ما بداخلنا، وبناءً عليه يحددون لنا تلك الأدوار، وبحسب الدور المرسوم للشخص، ومع تفانيه وإخلاصه في تأديته ترضى عنه الأسياد، وقد تأخذه في مرحلة ما ليحيى معهم ويصبح مثلهم سيدا.

أنهى كلامه وهو يلهث من فرط الحماس، لكن "حافظ" لم ينتبه إلى ذلك، وقال:

– أحسنت، لكن المكلف يستطيع أن يقوم بهذا الدور دون الحاجة إلى ترك بيته نهائيًا، أليس كذلك؟

– بالضبط، فالمكلفون من الإناث عندما تبلغ إحداهن سن الثمانية عشر عام يبدأ تكليفها، بحيث تؤدي دورها نهارًا داخل الكهف وليلًا في أحلامها وبحسب اختيار الأسياد لهذا الحلم، كذلك الذكور منهم، يختارون لكل واحد منهم عمله الظاهر الذي يؤديه في النهار، ومن خلال أحلامه ليلًا يؤدي الجزء الباطن من هذا الدور.

قال "حافظ" بحماس مفاجئ:

– تماما.. إن التكليف ينقسم إلى جزئين؛ ظاهر وباطن، ومع ذلك فإن المكلف من الرجال ما زال يستطيع أن يعود إلى بيته بعد العمل، أي بعد أن ينتهي من تأدية

الجزء الظاهر وذلك قبل غروب الشمس، ثم ينام في بيته عند الثامنة ليقوم بتأدية الجزء الباطن، وسط أسرته.

قاطعه "درويش" وهو يطلق تنهيدة ارتياح:

– لقد أفزعتني يا "حافظ"، أين إذًا التغيير في الأحكام والقوانين التي كنت تتحدث عنه؟

– كيف يتأكد الأسياد أن الجميع يلتزمون بالقيام بأدوارهم على أكمل وجه؟

شعر "درويش" بالضيق من تجاهل "حافظ" الإجابةَ على سؤاله للمرة الثانية، بل رد على سؤاله بسؤال آخر أيضًا، لكنه تجاوز شعوره هذا وأجابه:

– كما تعلم، فهم يستطيعون أن يراقبوا الجميع.

قاطعه "حافظ" وقد حسم أمره، زفر بقوة وقال:

– لقد بلغني أن الأسياد سوف يأخذون الشباب بدءاً من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين إلى مكان خاص بعيدًا عن بيوتهم، وأنهم سوف يقومون بشطري الدور المنوط بهم تأديته داخل هذا المكان، ولن يعودوا إلى بيوتهم حتى يطمئن الأسياد إلى أنهم يحكمون السيطرة عليهم تمامًا، ويتأكدوا أن هؤلاء الشباب يقومون بدورهم في تفانٍ وإيمان.

صمت "حافظ" لحظات بدا على وجهه التأثر ودمع عيناه، ثم قال بصوت متهدج:

– وهذا المكان قد يكون جنة لهؤلاء الشباب وقد يكون نارًا.

تطلع إليه "درويش" في دهشة عندما لاحظ أنه على وشك البكاء، فنظر في عينيه وهو يسأله بصوت غلب عليه التأثر:

– هل ستبكي، يا "حافظ"؟

وقبل أن يجيبه، قفز "درويش" من مكانه مشيرًا بإصبعه إلى أعلى، ثم تحدث بسرعة وبصوت ملأه الخوف:

– لقد بدأت السماء تأخذ اللون الأحمر.

– إلى داخل الكهف، أسرع.. أسرع.

الفصل الرابع

أسرع الرجلان إلى داخل الكهف، اهتديا بضوء شمعة أوقدتها الأم قبل أن تذهب للنوم، وتعاونا معًا حتى سدا مدخل الكهف بحصير سميك لا ينفذ منه الضوء، وبعد أن تأكدا من إغلاقه تمامًا جلس كل منهما على أحد الأحجار بالداخل، يلهثان بشدة.

مرت لحظات هدأت فيها أنفاسهما، نظر "درويش" إلى "حافظ" وهو يبتسم ابتسامة باهتة قبل أن يقول:

- لقد بدأت أشعر أني عجوزا.

فأجابه "حافظ" بصوت ساخر:

- بدأت! قل انتهيت.

ضحك "درويش" وهو يقول:

- هل تتحدث عني أم عن نفسك؟!

ضحك "حافظ" دون أن يعلق، لكن فجأة خرج "خالد" من غرفته مندفعا، يلهث ويصيح بأعلى صوته:

- جدي.. جدي!

التفت إليه "درويش" ومن قبله "حافظ"، والأخير يقول بلهفة:

- أنا هنا يا بني ماذا بك؟

وقف أمامهما وجسده ينتفض في قوة، نظر الجد إلى وجهه الذي ارتسمت عليه علامات الفزع، فأمسك كتفيه بكلتا يديه وأجلسه بجواره، ثم أحاط رقبته بيده وجذبها إلى صدره في رفق ليسند "خالد" رأسه إليه، ورويدًا رويدًا أخذت أنفاسه تهدأ.

انتظر الجد حتى هدأ تمامًا، ثم سأله بصوت حذر خرجت حروفه بطيئة:

- ماذا حدث يا بني؟

رفع رأسه عن صدر جده وقال بذهول:

- لقد حلمت يا جدي!

قال "درويش" في دهشة:

- حلمت! ولكن كيف؟! أنت لم تبلغ سن التكليف!

ثم استطرد في ثبات:

– إنها أحكام الأسياد، إن دخانهم الذي يغزو العقول هو من يجعلنا نحلم، وتمثال الأسياد المنتصب أمام الكهف هو ما يعين المكلف من سكانه على تأدية دوره في المنام.

نظر إليه "خالد" في حيرة، وساد الصمت لحظات ثم قال:

– أعلم يا عم "درويش"، فلا أحد يحلم قبل سن التكليف، ولكن صدقني لقد حلمت، ولولا أنني قد سمعت بعض الحكايات من أمي وجدي عن الأحلام لما علمت أن الذي رأيته هو حلم من الأساس.

ثم صمت الجميع، إلى أن قطع الجد حبل الصمت وهو يسأله بجدية واضحة:

– ماذا رأيت في حلمك؟

نظر إليه "خالد" كمن فاجأه السؤال؛ مما جعله ينظر إلى أعلى ليستجمع أفكاره، ثم قال: "رأيت أني أقف أمام جدار قديم، سطحه أملس مصقول، يملأ جزء منه كلمات مكتوبة بلغة غريبة لم أستوضح منها سوى اسم "خالد"، الذي كان يتكرر في كل سطر منها تقريبًا"، صمت فجأة؛ عندما تذكر أن جده طلب منه ألا يخبر أحدًا بأمر تعلمه القراءة والكتابة، كما أخبره أنه الوحيد الذي يستطيع القراءة والكتابة في هذا السن المبكر.

قم تنحنح وقال: "أنا أعرف كيفية قراءة اسمى، وإن كنت لا أستطيع القراءة في العموم".

نظر إليه درويش نظرة ذات مغزى ثم ابتسم.. ابتسم الجد أيضًا لفطنة حفيده، ثم أخبره أن يكمل بلا حرج، فاستطرد قائلًا: "يقف أمام الجدار سبعة رجال متشابهين تمامًا، قصار القامة وأجسادهم ممتلئة، لهم نفس الشعر الأسود الكثيف الطويل، وهو نفس شعر شواربهم ولحاهم، ويرتدون جميعًا نفس الثياب الخضراء الغريبة"، بدا على وجه الرجلين علامات التفكير العميق؛ توقف "خالد" عن الكلام.

ثم تطلع إلى جده الذي حثه أن يكمل كلامه، فقال: "في إصرار شديد أخذت من أحدهم ذلك الشيء الذي يكتبون به، ووجدت نفسي أكتب في الجزء الآخر من الجدار كلمات بنفس لغتهم، وإن كانت أكثر عددا، كنت أستخدم الفواصل كثيرًا بخلاف كتاباتهم التي كانت بلا فواصل، وأيضًا خرجت كتاباتي زرقاء بلون السماء نهارًا بخلاف لون كتاباتهم التي كانت حمراء تشبه لون السماء ليلا بعد الثامنة"

صمت قليلًا بدا عليه أنه يتذكر ما حدث، ثم قال: "عندما قرأ هؤلاء الرجال ما كتبت بدا على معظمهم عدم الاقتناع واستخفوا به، ثم قال أحدهم في إصرار: لن يكون ما كتبت، ما كتبناه نحن هو ما سوف يصير.. فوجدت نفسي أرد عليه وقد ازداد إصراري: بل ما كتبته أنا ما سوف يصير.. نظروا إليَّ في انزعاج واضطراب واضحين ثم التفتوا جميعًا في وقت واحد إلى رجل طاعن في السن لم أنتبه إلى وجوده سابقا، لم يبادلهم الرجل النظرات؛ كان مشغولًا بالتطلع إلي وهو يبتسم ابتسامة صافية، رقَّت لصفاء نظرته ملامحهم، ثم اختفوا فجأة، واستيقظت من النوم فزعًا".

سأله "درويش" مندهشًا:

- أكان هذا الرجل موجودًا من البداية؟

- أظنه ظهر فجأة.

سأله جده:

- كيف بدا هذا الرجل؟

حاول "خالد" أن يستجمع أفكاره قبل أن يقول:

- رجل طاعن في السن؛ أكبر منكما.. بكثير، شعره أبيض طويل ينسدل على جانبي وجهه، ولحيته طويلة بيضاء وكذلك حاجباه وشاربه، يلبس ملابس بيضاء وتحيط به هالة من نور.

برقت عينا الجد وهو يتطلع إلى "خالد" متعجبًا مما حدث، ثم غلبت عليها الشفقة التي ظهرت في صوته عندما قال:

- عد إلى نومك يا بني.

دار "خالد" على عقبيه ثم بدأ يخطو مبتعدًا عنهما، لكنه توقف والتفت إليهما مرة أخرى عندما سمع صوت جده يقول:

– "خالد"، لا تخبر أيَّ مخلوق بما رأيت في نومك، ولا بما سوف ترى فيما بعد، حتى أمك نفسها لا تخبرها بشيء، اتفقنا؟

أومأ له برأسه علامة الفهم ثم عاد أدراجه إليهما، استجمع إرادته وأشار إلى لفافة ما لا تفارق يد جده وسأله:

– ما هذه المخطوطة التي تحملها معك دائما، يا جدي؟

تدخل "درويش" وسأله بدوره:

– ما هي بالفعل؟ وما أهميتها يا "حافظ"؟

تطلع "حافظ" إلى المخطوطة التي يحملها في يده، ثم ابتسم في غموض وهو يقول:

– هيا، اذهب الآن لتنام، وسأخبرك فيما بعد.

الفصل الخامس

في الصباح وقبل السابعة، ذهب "درويش"، وترك "حافظ" يجلس وحيدًا على إحدى الأحجار غارقًا في التفكير، حتى أنه لم ينتبه إلى "خالد" الذي وقف أمامه قائلًا بصوت ناعس:

- صباح الخير يا جدي.

قابله الجد بابتسامة حانية قبل أن يجيب تحيته بصوت هادئ:

- صباح الخير، هل نمت جيدًا بعدها؟

- نعم، ولم أستيقظ إلا الآن.. يبدو على وجهك التعب يا جدي، ألم تنم؟!

أومأ الجد برأسه قائلا:

- بلى، حتى عندما نام "درويش" لم أستطع النوم.

- لماذا؟ ماذا هناك حقًّا؟

لم يجد منه جوابًا؛ فطأطأ رأسه يتطلع إلى الأرض وهو يستطرد:

- أتعتقد أنني ما زلت صغيرًا؟!

أجابه الجد سريعًا والابتسامة تعلو وجهه:

– لا، يا "خالد"، أنت لم تعد صغيرًا، وهذا ما يقلقني في الحقيقة.

اختفت الابتسامة من على وجهه الذي اكتسى بالجدية وهو يشير إلى صخرة بجواره، ويضيف برصانة:

– اجلس، أريد أن أتحدث معك في أمور لا أريد أن تسمع أمك منها شيئًا.

أسرع "خالد" إلى الجلوس، ثم تطلع إليه بعينين يبدو فيهما اللهفة والترقُّب، أخرج الجد من حقيبته مخطوطة أخرى غير تلك التي يمسك بها دائمًا، ثم مال عليه قائلًا بصرامة واضحة:

– عدني أولا، أن كل ما سأخبرك به سيبقى سرًّا بيننا، وأنك ستفعل كل ما أطلبه منك تمامًا كما أقول.

– أعدك.

– أريدك أن ترفع قميصك وتكشف عن صدرك.

فعل "خالد" ما طُلب منه، أسرع الجد يفض المخطوطة التي في يده، فاندهش "خالد" من كلماتها التي تشع نورً، وقبل أن يسأل أو يستفسر أسرع الجد يضع المخطوطة حول صدره المكشوف، بحيث تكون الجهة التي بها الكلام ملاصقًة

لجلده، ثم عقد الأربطة الأربعة التي تتدلى من أطرافها بإحكام خلف ظهره، ثم أسدل قميص حفيده وقال بحزم:

– لا تنزعها عن صدرك أبدًا سواء بقصد أو بغير قصد.. عليك أن تنام وتقوم وتستحم وتذهب إلى أي مكان وهي معقودة على صدرك كما هي، ويجب عليك أن تتأكد دائمًا أن ملابسك تغطيها؛ بحيث لا يراها أحد، ولا تخبر عنها أحدًا كما اتفقنا، أفهمت ما أقوله لك يا بني؟

– نعم، يا جدي، فهمته.. ولكن ما هذه المخطوطة؟

أخرج الجد المخطوطة الأخرى الملازمة له وقال:

– أنا من الجيل الذي يسمى بالجيل الأول من الناجين.

لم يستطع "خالد" كبك جماح نفسه، حتى أنه لم ينتظر ليسمع إجابة سؤاله الأول وهو يقاطع جده ويسأل في لهفة:

– وكيف نجوت حقًّا؟

شرد ببصره بعيدًا، ثم ابتسم وقال:

– عندما حدث الطوفان، كانت المياه عالية تجري بسرعة وقوة، مما جعلها تهدم كل شيء في طريقها، وتقتلعه من جذوره، ثم تدفعه أمامها، وبالطبع هدمت بيتنا من ضمن ما هدمت.

صمت قليلا ليبتلع ريقه قبل أن يكمل ويقول:

– كل ما أذكره هو صوت هدير قوي يكاد يصم الأذان، أعقبه صوت ارتطام جسدي بالماء، ثم غصت فيه عميقًا.. لحظات وبدأت أختنق حتى أصبحت على وشك الموت، لكن فجأة شعرت بيدٍ تمسك بي، وتجذبني إلى أعلى لتخرجني من الماء، يد قوية كبيرة ذات أصابع طويلة توحي بأن صاحبها ذو جسد ضخم.. رفع صاحب اليد جسدي في سهولة وأخرجني من الماء لكني كنت قد فقدت الوعي، وعندما استيقظت انتابني قلق شديد، أخذت أتلفت حولي بحثًا عن أبي.. تملكني الخوف فأخذت أبكي وأنا أتطلع إلى المكان الغريب من حولي.

صمت الجد مرة أخرى وهو يحاول أن يهدئ من نفسه بعد أن عصفت به الذكريات، لكن "خالد" لم ينتبه إلى ذلك وهو يحثه على مواصلة الكلام قائلًا في لهفة:

– وماذا حدث بعدها؟

– أقبل علي رجل طاعن في السن يبتسم في طيبة واضحة، ثم ربت بيده على ظهري ومسح برأسي وصدري، لقد كانت نفس اليد الكبيرة ذات الأصابع الطويلة التي أنقذتني من الغرق.

فتح الجد عينيه عن آخرهما قبل أن يضيف:

– لكن الغريب أن صاحبها لم يكن بتلك الضخامة بل كان قصيرًا ممتلئ الجسد يرتدي زيًّا غريبًا.

ثم ضاقت عيناه مرة أخرى وشرد ببصره بعيدا.

مرت لحظات والجد على ذلك الحال مما جعل "خالد" يستحثه على مواصلة الكلام مرة أخرى، فعاد من شروده وقال:

– الأغرب أنه حين مسح بصدري ورأسي، أنا أتذكر تلك اللحظة جيدًا، لقد ذهب عني الخوف، ولم أعد أبكي، ثم غمرني شعور بالأمان.

صمت الجد مرة أخرى وهو على ما يبدو يستدعي شعور الأمان مرة أخرى، خشي "خالد" أن يتوقف جده عن الحديث فسأله:

– وماذا حدث بعدها؟

نظر الجد إليه نظرة خاوية وقال:

– أحضر لي بعض الطعام والشراب ثم قال كلمات بصوت عجيب وبلغة غريبة، لكنى فهمت معناها الذي نفذ إلى قلبي وما زال يسكن صدري: "لا تسجد لهم وترقب، سترى الغريب بعينيك وسيفهم الكثير عقلك".

أصاب "خالد" الذهول بعد أن استمع إلى كلام جده، ودار في رأسه ألف سؤال وسؤال، لكنه لم يسأل أيًّا منها؛ عاد جده يقول:

– ومع مرور الوقت عرفت من الذين لا يجب على السجود لهم، ولسبب ما لم أدركه في حينه لم يعلم الأسياد بأمري، ولم يقبضوا عليَّ كما فعلوا مع الكثيرين غيري ولأسباب أقل بكثير من هذا.

صمت الجد وطال صمته، و"خالد" يتأمله في تركيز واضح وهو يفكر فيما أخبره به، مما جعل جسده ينتفض حين سأله الجد فجأة:

– أما زلت معي؟

– نعم.. نعم.

عصفت الذكريات بمشاعر الجد فآثر السلامة واكتفي منها بهذا القدر، وتركها تذهب بعيدًا، وذهب هو مباشرة إلى ما كان يريد أن يقول:

– المهم، لقد رأيت الرجل الطاعن في السن نفسه مرة أخرى قبل أن أتم الثامنة عشرة، وأعطاني هذه المخطوطات، وأطلعني على سر كل مخطوطة منها وفيما تستخدم، ومن يومها، وأنا أستخدمهم، تلك الواحدة التي لا تفارقني في التخفي عن أعين الأسياد فلا يستطيعون مراقبتي؛ لذلك لم يستطيعوا أن يعلموا من أمري شيئًا.

شرد لحظات، ثم قال:

– وهو نفسه من اختار لي زوجتي، كما علمني الكثير من الأشياء، كلغة الأسياد والمبارزة بالسيف وغيرهما.

لم يستطع "خالد" أن يتمالك نفسه أكثر فقاطعه قائلًا:

– هناك الكثير من الأشياء التي أود أن أسألك عنها: "كيف كنت تهرب من الأسياد؟ وماذا كنت تفعل طوال هذه السنين؟ وهل رأيت ذلك الرجل مرة أخرى؟ وما المبارزة بالسيف؟ أريد أن أعرف المزيد".

لكن الجد استوقفه بيده وهو يقول:

– ليس هناك وقت لهذا كله، لكنني سأجيب على السؤال الضروري.. نعم قابلته بعدها كثيرًا، ولكن المرة الأخيرة هي الأهم، انتبه "خالد" مرة أخرى والجد يضيف:

– رأيته منذ يومين، ظهر لي فجأة كعادته.

ابتسم الجد رغمًا عنه حين وصل بالكلام إلى هذا الجزء وهو يضيف بصوت غلبت عليه السكينة:

– لكنه في هذه المرة لم يكن بمفرده، لقد جاء ومعه رجل يشع نورًا، أعتقد أنه نفس الرجل الذي رأيته أنت في حلمك.. لم يتكلم هذه المرة بل ترك رجل النور يتكلم، وقد كان، وبعد أن انتهى الرجل من كلامه أعطاني المخطوطة التي وضعتها على صدرك الآن، ثم طلب مني أن أخبرك أن تواجه قدرك.

– وكيف ذلك؟ ماذا تعني؟

- ستعرف كل شيء في حينه.. كل شيء وله وقته.

ثم نظر إليه في جدية واضحة وقال:

- لا تسجد لهذا التمثال المنتصب أمام الكهف، ولا لأي تمثال آخر.

التفت الجد إلى ذلك التمثال وهو يستطرد:

- هذا ما أرادني رجل النور أن أقوله لك أيضًا.

تأمل "خالد" إلى التمثال طويلًا؛ فلم ينتبه إلى جده الذي عاد يلتفت ناحيته وهو يسأله:

- أفهمت؟

لم يبدو على "خالد" أنه قد سمعه؛ لقد انصب تركيزه كله على التمثال الذي بدا له في هذه اللحظة كأنه يراه بكل تفاصيله لأول مرة، هو تمثال لرجل يثني قدمه اليمنى، مرتكزًا بركبته اليسرى على قاعدة حجرية كبيرة، يرتدي رداء ينسدل على ظهره، يمسك طرفه بيده اليمنى ويخفي به وجهه ورأسه، ويمسك في يده اليسرى عصًا أشبه بالصولجان منحوتة ببراعة، وعند قاعدة التمثال توجد بعض الكلمات المكتوبة بلغة الأسياد.

وعندما وصل إلى هذه النقطة اعتصرت قبضة صدره، فالتفت إلى جده وقال بصوت يحمل علامات الانزعاج:

– ماذا تعني تلك الكلمات على قاعدة التمثال؟ ولمن هذا التمثال؟

فأجابه الجد في هدوء:

– ليس الآن، كل في حينه.

هم "خالد" بتوجيه سؤال آخر لكن صوت الأم الآتي من داخل الكهف أسكته:

– "خالد"، أبي، أين أنتما؟

ثم ظهرت خارجة من الكهف، يغطي وجهها كله ابتسامة حانية، وقالت:

– هيّا إلى الإفطار.

بعد الإفطار قال الجد فجأة بصوت عالٍ بحيث تسمعه الأم أيضًا:

– "خالد"، هيا بنا نسير سويًّا.

وغمز لـ"خالد" بعينه فأجاب بسرعة وبصوت عال:

– حسنا، هيا بنا.

– إلى أين تذهبان؟!

فأجاب الجد في سرعة:

– سوف نسير قليلًا، يا بنيتي.

ثم ابتسم وأضاف:

- لا تقلقي.

****

سار "خالد" بجوار جده مسرعًا الخطى، تبدو على محياه السعادة واضحة، ثم بدأ يلهث وهو يحاول مسايرة سرعة جده ونشاطه اللذين لا يتناسبان وسنه، حتى أنه ابتسم وهو ينظر إليه، لفتت الابتسامة نظر الجد، فضاقت عيناه، وسأله ببطء:

- وما معنى تلك الابتسامة؟

- لا شيء، أنا فقط سعيد بوجودي معك.

- وأنا أيضًا.

لم يتفوها بحرف واحدة بعدها، حتى وصلا إلى مكان بدا لـ"خالد" أنه قد ظهر من العدم، فبينما كان يتبع جده الذي يدور حول تل مرتفع ظهر أمامه ممر ضيق، عبره خلفه، فقادهما الممر إلى مكان فسيح ممهد بالرمال تحيط به جبال عالية من جميع جوانبه فيما عدا الممر الضيق الذي دلفا منه.

تبع "خالد" جده الذي توجه صوب منتصف الساحة الرملية، ثم توقف وفتح حقيبته، أخرج من أحد تجاويفها غبارًا شديد اللمعان، نثره في الجو من حولهما، بدا عليه الاطمئنان وهو يقول:

- الآن يمكننا أن نبدأ.

وضع الحقيبة على الأرض، ثم أخرج منها كتابًا صغيرًا، ألقاه إلى "خالد" قائلًا بحماس:

- تطلع إلى محتواه جيدًا، يا يني.

اندهش "خالد" عندما فتحه؛ لم يكن يحتوي على أي نوع من الكلام، فقط بعض الصور، واحدة لرجل يحمل في يده شيئًا ما يرفعه أمامه، ثم يخفضه في أخرى، ومجموعة أخرى من الصور للشخص نفسه وهو يقف أمام شخص آخر يحمل نفس الشيء في يده أيضًا.

- ما هذا؟!

ابتسم الجد وهو يجيب:

- كتاب يشرح فن القتال بالسيف، آن الأوان لتتعلم كيف تقاتل به.

أخرج الجد من حقيبته سيفين خشبيين، ألقى بأحدهما إلى "خالد" وهو يقول بنفس الحماس:

- خذ سيفك أيها البطل الهمام.

ثم بدأ يدرب "خالد" على كيفية الإمساك بالسيف وكيفية الارتكاز الصحيح على قدميه، وتوازن جسد، ثم بدأ يعلمه فن القتال، الدفاع والهجوم، الكر والفر.. ظلَّا

يترددان على نفس المكان يوميًا، والجد ينثر الغبار اللامع قبل التدريب.. يدربه في كل مرة على مهارة جديدة من مهارات القتال بالسيف، التوازن، السرعة، خفة الحركة، المرونة، الدفاع وصد الهجوم، ثم أخيرا المناورة والهجوم.

بعد فترة من التدريب اليومي المتواصل والتي تجاوزت الشهر، أعطاه الجد سيفًا لامعًا من المعدن هذه المرة، قصيرًا وعريضًا، بخلاف السيف الذي كان يحمله هو في يده فقد كان طويلًا رفيعًا، وبدأت المرحلة الثانية من التدريب على القتال باستخدام سيف حقيقي، استمرت شهرًا آخر.

انتهى التدريب اليومي واطمأن الجد إلى إتقان "خالد" لهذا الفن إتقانًا تامًا، لقد أصبح "خالد يتعامل مع السيف وكأنه ولد مقاتلًا، انتهت فترة التدريب نهائيًّا، غادرا المكان الفسيح وتوجها مباشرة إلى الكهف.

بمجرد أن وصلا ولجا غرفة "خالد" معًا، أخرج "الجد" السيف القصير من حقيبته وأعطاه إليه قائلًا:

– هو لك الآن يا بني، لقد استحققته عن جدارة، حافظ عليه جيدًا؛ سوف يكون معينًا لك عند الحاجة.

ثم تطلع إليه طويلًا؛ مما جعل "خالد" يشعر أنه يودعه.

بالفعل، عندما استيقظ من نومه صباحًا خرج يبحث عنه، لم يجده، فعاد إلى حجرته مسرعًا وأخرج السيف من داخل صندوق ملابسه، حيث وضعه بالأمس..

رفعه أمام وجهه فلاحظ أن السيف قد أصبح أثقل وزنا، وبينما يفكر في كيفية حدوث هذا ولماذا، ظهرت كلمات غريبة مكتوبة بحروف من نور على السيف، حروف النور نفسها التي تزين المخطوطة حول صدره.

أطيعهم وأخدمهم في يقظتي ومنامي فأنا عبدهم وهم أسيادي

الفصل السادس

مرت سبعة أشهر لم يكن يتحدث خلالها مع أحد بخلاف أمه، التي اصبح حديثه معها هي الأخرى نادرًا، وعلى فترات متباعدة.

استيقظ ذات صباح يلهث بشدة، كمن بذل مجهودًا يفوق طاقته أضعافًا مضاعفة، فرد يديه عاليًا وحرك رأسه ورقبته يمينًا ويسارًا؛ لعله يطرد بعضًا من هذا التعب الذي يحتل جسده، ولكن بلا جدوى، نفس التعب الذي بدأ ينتابه مؤخرًا عندما يستيقظ من نومه، خصوصًا عندما يبذل مجهودًا ما في حلمه.

أخذ يتذكر ما رآه في حلمه هذه المرة، لقد رأى نفسه نسرًا يحلق في السماء، ضاقت عيناه وهو يتمتم بينه وبين نفسه: "الشيء الملفت بالفعل أنني لم أستغرب نفسي وأنا في هذه الهيئة، مثلها مثل أية هيئة أخرى اتخذتها في أحلامي من قبل، والغريب أني في كل مرة كنت أعلم ما يجب علي فعله".. في حلمه كان النسر يحلق فوق المناطق الزراعية وينظر إلى أسفل بعينيه الثاقبتين، حتى إذا رأى واحدًا من الحيوانات القارضة أو الزواحف الضارة، هبط منقضًّا عليه بسرعته ويغرس فيه مخالبه الحادة، ثم يطير به بعيدًا ليلقي به في مكان ناء، حيث تجمع كل النسور الأخرى التي على شاكلته الزواحف والقوارض الضارة.

وكعادته في أحلامه مؤخرًا، يقوم بعمله أيًّا كان بهمة ونشاط، ثم يستيقظ من نومه في تمام السابعة تمامًا ليبدأ روتين يومه دون شكوى أو ملل، كأنها الفطرة التي فُطر عليها، أو كأن حياته الحقيقية لم تعد في استيقاظه ولكن في منامه، حتى

أنه لم يعد يهتم بما يفعله في ساعات النهار، أصبح لا يطيق صبرًا حتى يذهب إلى حجرته لينام.

ثم بدأ يستعيد ذكريا حلمه الأول، الحلم الغريب الذي استيقظ منه فزعًا وجرى مسرعًا يقصه على مسامع جده وعم "درويش"، يتذكر ما قال له الأخير وقتها، لقد أخبره بأنه لم يحدث من قبل أن حلم أحدهم قبل أن يتم الثمانية عشر، زفر في قوة عندما وصل بذاكرته إلى تلك النقطة وغمغم: "لكنني فعلتها، ومن ليلتها بدأت أرى بعض الأحلام، ثم كثرت بشدة بعد مغادرة جدي.. أرى أشياء غريبة لم أرها من قبل في يقظتي ولا أعلم عنها شيئا، الغريب أني في الأحلام أعلم ما هي هذه الأشياء، أعرف أسماءها وماهيتها، وماذا تفعل، بل وأكثر من ذلك فأنا أعرف شعورها في حينه؛ لأني في وقتها أشعر بما تشعر، بل أصبح أنا هي".

شرد ببصره وعلا صوته رغمًا عنه وقال: "في أحلامي أكون أنا نفسي الكيان الآخر، أنا على وشك أن أفقد عقلي، من هؤلاء؟"، غشى صوته الحزن وهو يقول: "جدي، كم أشتاق إليك! أين أنت الآن؟ أحتاج إلى الكلام معك واستشارتك، هل أزور عم "درويش" في كهفه وأتحدث معه؟ ولكن ماذا أخبره؟ هل أخبره عن تلك المرة التي رأيت نفسي أعمل في الزراعة؟ وأخبره كم كنت مزارعًا ماهرًا! أم أخبره عن المرة الأخرى حين كنت أعمل خادمًا لأسياد عمالقة تبدو عليهم الغلظة والنهم للطعام والشراب؟ أم الأخرى التي كنت فيها طبيبًا؟ هل أقول له إن أحداث كل حلم من تلك الأحلام تتكرر معي لمدة معينة، ثم أبدأ بعدها في رؤية حلم آخر مختلف عنه؟! أم

أقول له بأني في كل حلم كنت أعلم دوري وما علي فعله تماما؟ هل سيصدقني من الأساس؟".

ثم تذكر وعده لجده بعدم الحديث عن أحلامه مع أحد أبدا.

****

– ماذا بك، يا بني؟

أفاق من شروده على صوت أمه التي لم يشعر بها وهي تدلف إلى غرفته، رد قائلا:

– لا شيء.

– أنت لم تبارح الكهف منذ وقت طويل.

– لا أريد أن أرى أحدًا.

– أعلم أنك تفتقده، وأنا افتقده بدوري.

تطلع إليها دون أن ينطق بكلمة واحدة.

غشى وجهها الحزن الذي ظهر أثره في صوتها عندما قالت:

– لقد أردت أكثر من مرة أن أتحدث إليك، وفي كل مرة كنت أخبر نفسي بأنها فترة وستنتهي، لكن الأمر طال.

- ماذا على أن أفعل؟

- اخرج لزيارة بعض زملائك، "تجيب" مثلا، لقد أتى لزيارتك أكثر من مرة، لكنك كنت ترفض مقابلته.

بدت له الفكرة مناسبة من عدة جوانب، نهض من فراشه وغير ملابس النوم البيضاء.. بعد أن تناول إفطاره مع أمه خرج قاصدًا كهف "تجيب" الذي يقع في نفس مستوى كهفه.

كان يسير بتأنٍّ، يلقي ببصره هنا وهناك متفحصًا الأشياء من حوله، لاحظ كمًّا من الأشياء التي يراها لأول مرة، وأشياء أخرى كان يراها من قبل دون أن تلفت نظره، لقد بدت بلا معنى في وقتها.. لكن نظرته للأمور من حوله قد تغيرت الآن كثيرا.

وبينما هو على حاله هذا وقع بصره على تمثال يقف شامخًا على جانب باب أحد الكهوف، كاد يقفز من هول المفاجأة؛ ذلك لأن التمثال كان يتخذ هيئة نسر، تماماً كما يراه في أحلامه.. اقترب من التمثال في حذر، لم يكن هناك أحد من ساكني الكهف بالخارج مما شجعه على الاقتراب أكثر حتى وقف أمام هذا التمثال.

أخذ يتفحصه وهو يتمتم: "نعم إنه هو، وبالتفاصيل نفسها، ولكن كيف هذا؟"، ثم لفت نظره الكلمات التي كُتبت بلغة غريبة ربما هي لغة الأسياد، وقبل أن يسترسل أكثر في أفكاره سمع صوتًا يأتي من داخل الكهف ينبئ بخروج أحدهم؛ فأسرع الخطى مبتعدًا.

أخذ بعدها يتفحص التماثيل القابعة أمام الكهوف في طريقه، وعندما لا يجد أحدهم بقرب كهف ما، يقترب من التمثال ويتفحص الكلام المكتوب.. تعرف من التماثيل التي رآها على النسر والثور، وعندما وصل إلى كهف "تجيب" رأى تمثالًا لمزارع عرفه على الفور؛ فقد رأى نفسه مزارعًا في حلم من قبل.. تقدم منه ثم وقف أمامه، لفت نظره أن وجه التمثال مطموس الملامح، مجرد وجه بلا أنف أو عينين أو فم، وبينما يتفحص الكلام المكتوب على قاعدة التمثال الحجرية انتبه لأول مرة إلى تكرار نفس الكلمة الأولى في جميع التماثيل التي اقترب منها، وكأنها كلمة تقديم أو لقب.

لمعت عيناه وهو يقول بصوت عال: "سيد، الكلمة تعني سيد ولا ريب، سيد نسر، سيد ثعبان وهكذا.. والنسر والثعبان هي رتب".

انتفض جسده عندما سمع صوت "تجيب" يقول:

- "خالد"! ماذا تفعل عندك؟

جلسا سويًّ على صخرتين خارج الكهف، قال الأخير وهو يبتسم بود لصديقه الذي لم يره منذ فترة طويلة:

- أين كنت؟ إنك لم تظهر ربما منذ تسعة أشهر.. نعم، منذ عيد مولدك.

- موجود.

– موجود! ماذا تعني؟ لقد كنا نتبادل الزيارات من قبل، نجلس ونتحدث سويًا، ونلعب لعبة ما أو نسير هنا وهناك.

صمت لحظات ثم أكمل بصوت حذر:

– لكنك اختفيت فجأة، حتى أنني قد ذهبت إلى كهفك للسؤال عنك أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت أمك تخبرني أنك نائم، مط شفتيه قبل أن يضيف:

– لقد فهمت أنك ربما لا تريد رؤيتي مما جعلني أتوقف عن زيارتك بعدها.

لم يرد "خالد"، مما جعله يعقد حاجبية ويسأله:

– ماذا هناك حقا؟!

ولما طال الصمت أكثر مما ينبغي، لان صوت "نجيب" وهو يضيف بصدق:

– أخبرني، فأنا صديقك.

تردد "خالد" كثيرًا، ثم فتح فمه أخيرًا وضغط على الحروف أملًا أن يمنع الكلام من الخروج، فخرج في النهاية همسًا:

– هل تحلم يا "نجيب"؟

– أنت تسخر مني! أليس كذلك؟!

لكن نظرة واحدة إلى ملامح وجه "خالد" الجادة جعلته يراجع نفسه ويقول بصوت تبدو عليه الحيرة:

- هل أنت جاد؟!

ثم نفض رأسه في قوة يمينًا ويسارًا وقال بثقة:

- لا أحد يحلم قبل بلوغ سن التكليف، وأنا أصغرك بشهرين، هل نسيت؟

انتهز "خالد" الفرصة ليتهرب من الكلام فقال بسرعة:

- صحيح، يتبقى لي ثلاثة أشهر ولك خمسة حتى بلوغ سن التكليف.

- هل هذا ما يجعلك قلقا هكذا؟

رد في اقتضاب:

- بالضبط.

انضم إليهما في هذه اللحظة شاب آخر عرَّفه "نجيب" إلى "خالد" بأنه صديق من مستوى مختلف، اسمه "مراد".. من كلام "مراد" تبين لـ"خالد" أنه شاب فطن، كما أنه ملم بأمر سن التكليف هذا، خصوصًا عندما تحدث عن التغيرات التي لاحظها على أخيه الأكبر "سامر" عندما بلغ سن التكليف، ومنها قوله: "بعد أن تجاوز أخي الثماني عشرة سنة بأيام أصبح وكأنه إنسان آخر، تغيرت شخصيته؛ فلم يعد يضحك

مثل السابق، أو يتحدث معي إلا لمامًا، كما أصبح عدائيًا مع الجميع، وعندما سألته عن ذلك الأمر أجابني بأن كل ما يهمه الآن هو رضا الأسياد عنه".

كانا يستمعان إلى "مراد" في دهشة؛ إذ كانت تلك المرة الأولى التي يخبرهما أحدهم بمثل هذا الكلام عن التكليف، جد "خالد" نفسه لم يذكر شيئًا مثل هذا من قبل، لكن هذا لم يمنع الأخير أن يقول:

- إذًا فقد تغيرت شخصية أخيك!

أجاب في صوت غلب عليه الحزن:

- نعم، لقد أمسى أكثر قسوة وغلظة، وكل ما يشغله الالتزام بالقوانين، والاجتهاد في عمله نهارا، والمواظبة على النوم في ميعاده ليؤدي دوره في أحلامه، روتين، وجمود، وطاعة أسياد، ملخص شخصيته بعد التكليف.

لاحظ "خالد" الضيق الواضح في كلام "مراد"، واستنتج منه مدى حبه لأخيه، لكنه أراد أن يستزيد، فسأله:

- وكم حلمًا مختلفًا رآه أخوك "سامر" حتى الآن؟

- لا يمكن لأي أحد أن يرى سوى حلم واحد وبمهمة واحدة، يتكرر معه طوال فترة تكليفه.

ثم استطرد:

– كما يقول أبي: "هي مهمة واحدة مقدسة، يجب على أحدهم أن يؤديها في تفان وطاعة".

وعندما التفت إلى "خالد" شعر بالدهشة؛ حيث كان الأخير يفغر فاه عن آخره.

الفصل السابع

لاحظ الجميع شرود ذهن "خالد" الذي يجلس منزويًا وحيدًا، لا تبدو عليه أية فرحة تتناسب والمناسبة الذي اجتمعوا داخل كهفه من أجلها.

لقد حضر "درويش" وصديقه "نجيب"، كما حضر "مراد" الذي أصبح أحد أصدقائه هو الآخر، كما أتى بعض كبار السن وبعض النساء والأطفال والصبية، من الممكن أن تقول أنهم كانوا يجلسون تقريبا بنفس الترتيب والكيفية التي كانوا يجلسون بها في عيد ميلاده السابق بزيادة شخص أو اثنين، وغياب شخص.

ومع النار والمشروب الساخن الذي أعدته الأم، كان الاحتفال يشبه تمامًا ذلك الذي كان هنا منذ سنة كاملة بالضبط، مع اختلاف واحد؛ جدَّه "حافظ" لم يكن موجودًا، وهو ما جعل ملامحه تتحول إلى الضيق والقلق والحزن، حتى أن معظم الموجودين كانوا لا يشعرون بالراحة، وينتظرون بفارغ الصبر أن يمر الوقت وتأتي الساعة السابعة على الأقل ليذهبوا إلى كهوفهم.

بغياب الجد فقد الاحتفال بعيد ميلاد "خالد" روحه، ومع حزن "خالد" الواضح والذي لم يبذل أيَّ جهد لإخفائه صار هذا اليوم من أسوأ الأيام التي اجتمعوا فيها على الإطلاق، وأخيرًا جاءت الساعة السابعة، وانصرف الجميع في عجالة كأنما يفرون بأرواحهم.

قبل أن ينصرف "درويش" اقترب من "خالد" وجلس بجواره، ثم قال بصوت غلب عليه الصدق:

– من المؤكد أن هناك أسبابًا منعته من الحضور، أنا على يقين من أنه سيأتي قريبًا، بمجرد أن يستطيع ذلك، أنت تعلم كم يحبك، أليس كذلك؟

أومأ "خالد" برأسه متفهما.

– هل هناك أي شيء أستطيع فعله لك؟

– شكرًا لك يا عم "درويش".

انصرف "درويش" وترك المُكلَّف الجديد وأمه وحدهما.. قام "خالد" فجأة واتجه إلى غرفته مسرعًا، حاولت أمه أن تلحق به لكنه استوقفها وهو يشير إليها بيده:

– سوف أدخل غرفتي لأنام، أرجوك اتركيني نائمًا حتى أستيقظ من تلقاء نفسي.

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، بمجرد أن دخل غرفته بكي بشدة.. بعد أن فرغت دموعه أو كادت، قام ليغير ملابسه وينام، لكنه فوجئ بأمه تستأذنه في الدخول، وقبل أن يعترض أو يقول أي شيء دخلت عليه الغرفة، ورأت آثار الدموع في عينيه؛ احتضنته في لهفة قائلة بصوت حانٍ:

– أعلم أنك تفتقده، لكنك كبرت الآن وعلى وشك التكليف، ويجب عليك أن تغير من نفسك لتكون نموذجًا في اتباع أحكام الأسياد، وألا تكون أبدًا سببًا في جلب سخطهم عليك أو علي.

كانت تطلع إليه في حنان قبل أن تعلو وجهها ابتسامة رقيقة وتضيف بنيرة هادئة:

– أريد منك أن تكون قريبًا منهم قدر المستطاع.

صمتت لحظات استطاعت فيها أن تستحوذ على انتباهه؛ فابتسم وهو يتطلع إليها، ثم استطردت بنفس الهدوء:

– في النهاية، هم الأسياد.

تركته ليغير ملابسه وينام، بينما يخلع قميصه اصطدمت يده بالمخطوطة الملامسة لصدره، وجد نفسه دون أن يشعر يسترجع كل ما دار في الأوقات التي قضاها جده معه، كلامه، نصائحه له، تدريبه على استخدام السيف.

ماج عقله بصراعٍ بين ما أوصاه به جده وبين ما تطلبه أمه في تلك اللحظة الحرجة، ثم تذكر وعد جده له بأنه سوف يكون معه دائمًا ولن يتركه أبدا، هاج صدره وشعر بثقل خلف مكان المخطوطة تمامًا.

أحسَّ بغصة في حلقه وهو يفكر في مرحلة التكليف التي على وشك البدء، وعليه أن يختار، لم يشعر بنفسه إلا وهو ينتزع المخطوطة عن صدره، ثم يلقي بها

في صندوق ملابسه بجوار السيف.. انتفض جسد "خالد" حين دوت تلك الضحكة المخيفة.. أقسم فيما بعد أن مصدرها التمثال القابع أمام الكهف، ضحكة بثت الخوف في قلبه، لدرجة لم يشعر بمثلها من قبل، فهرع إلى فراشه وأغمض عينيه ونام.

****

يبدو أن تكليفه قد بدأ بالفعل؛ لقد نام في الثامنة تمامًا، ورأى نفسه في مكان غريب، إضاءته خافتة مكونة من عدد من الألوان المتداخلة التي لم يستطيع تمييز معظمها، يجلس شبه عارٍ على فراش كبير وثير، ممسكًا في يده بكوب يحوي سائل أحمر ذو رائحة نفاذة، ويهم برفع الكوب ليقربه من فمه، تقدمت منه في هذه اللحظة امرأة شديدة الجمال ثم توقفت أمامه، وبدأت تخلع ملابسها بطريقة مثيرة.

ظل يضاجعها طوال الليل حتى استيقظ فجأة في تمام السابعة، نهض وغادر فراشه في آلية، وبعد أن تناول إفطاره مع أمه جلس في خضوع عجيب، لم يشعر بمرور الوقت لكنه قفز من مكانه فزعا حين سمع صوت عربة تقف أمام الكهف.. نظر إلى أمه التي بدا عليها التوتر وقد علمت على الفور ما يعنيه هذا، فسألته في سرعة:

- هل حلمت بالأمس؟

- نعم، يا أمي.

- لقد وضعت الحجر الأحمر أمام باب الكهف بالفعل.

بدا عليها القلق الممزوج بالفرحة وصغيرها قد بدأ تكليفه، فسألته:

- ماذا رأيت في حلمك؟

طأطأ رأسه خجلًا ولم يجِب.

- لا عليك، هيا ارتدِ ملابسك، وخذ هذا معك.

مد "خالد" يده يأخذ قناع الغشاوة من أمه، وما أن أمسكه حتى شعر بقشعريرة تسري في بدنه مع ملمسه الرخو، ثم رفعه أمام وجهه يتفحصه عن قرب، وشعر بالدهشة فهو يبدو كالضباب الذي يسود الجو، لكنه أكثر كثافة وأشد تماسكًا.. انتفض جسده فجأة وأمه تصرخ عليه:

- هيا أسرع وضعْ قناع الغشاوة على عينيك.

ذهب يستبدل ملابسه، فارتفع صوتها أكثر وهي تقول في حماس:

- ويجب أن تظل ناكس الرأس في الخارج حتى يذهبوا بك، وارتدِ قناع الغشاوة.

علا صوته وهو يقول في ضيق:

- كفى يا أمي، أنا على وشك الخروج بالفعل.

الفصل الثامن

سارت العربة لفترة من الزمن و"خالد" بداخلها مرتديًا قناع الغشاوة الذي لا يمكنه من رؤية أي شيء، أحس فجأة بخفة الوزن وزيادة السرعة، كأنها تطير به في الهواء، لم يستطع التعليق أو السؤال؛ فهو يعيي ضرورة صمته في حضرة خُدَّام الأسياد؛ فهم في النهاية جاؤوا من طرف الأسياد أنفسهم، جال في خاطره أنهم ربما صنف من الأسياد، وأن الأسياد أنفسهم ينقسمون إلى درجات بعضهم فوق بعض.

سرعان ما نفَّض تلك الأفكار عن رأسه مذكِّرًا نفسه بضرورة أن يحسن التصرف، وأن يكون نموذجًا في حسن الأدب والسلوك من أجل أمه، ولن يظهر ذلك إلا بالطاعة العمياء.. بعد فترة بدأ يشعر بالقلق من المجهول الذي يتجه إليه، ثم انتابته موجة حماس مفاجئ لاختبار ذلك الجزء الغامض من الحياة.

ثَقُل نَفَسُه فجأة وخف وزنه فخمن أن العربة تهبط إلى أسفل، ثم توقفت، سمع صوت غريب له صدى طويل ورنة مميزة يأمره بالترجل من العربة، وعلى الفور أطاع الأمر متحسِّسًا طريق نزوله، وما أن أصبح خارج العربة حتى سمع نفس الصوت مرة أخرى يتردد صداه داخل عقله، ويقول بنبرة آمرة:

- اخلع القناع.

خلعه على الفور.

- افتح عينيك وتقدَّم حتى تعبر من البوابة كما يفعل من أمامك.

فتح عينيه فأصابته الحيرة عندما لم يرى أي أثر لعربة من حوله.. تلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن مصدر الصوت، ازدادت حيرته عندما لم يجد أحدًا، ثم انتبه إلى وجود ثلاثة رجال يقفون على مسافة كبيرة منه ويلونه ظهورهم.

جال ببصره يستكشف المكان من حوله، ثم تسمر في مكانه؛ لم يرى أثر لا لجبال ولا كهوف، مجرد صحراء جرداء مترامية الأطراف، يغطيها سماء زرقاء صافية، مكان خالٍ تمامًا، إلا من ذاك الشيء الذي كان يقف أمامه الرجال الثلاثة.. اقترب بضع خطوات في حذر، تبين له أنها بوابة من نوع ما يملؤوها فراغ أسود.

ظهر أثر الحيرة في صوته العال عندما سأل:

- من الذي كان يتحدث إلي الآن؟

التفت إليه أحد الثلاثة وقال بصوت خافت:

- إن ذلك الصوت يتردد في العقول فقط، ولا تسمعه الأذن.

هم أن يسأله سؤالًا آخر، لكنه لم يجده أمامه فقد عبر من خلال البوابة، واخترق الفراغ الأسود ثم اختفى.. تسمر "خالد" في مكانه لا يدري ماذا يفعل، ثم استجمع قواه وأغمض عينيه واندفع في قوة نحو الفراغ الأسود ليعبر بدوره، عبره في سلاسة ونعومة ليجد نفسه في مكان آخر مختلف تمامًا.

أرض واسعة تغرق فيما يشبه الظلمة لولا ضوء خافت لا يُرى مصدره، سمائه مظلمة بلا شمس ولا قمر.. والجميع من حوله يرتدون نفس الملابس المكونة من قميص واحد طويل لونه أصفر، وينتشرون بنظام معين، البعض منهم يمسك في يديه فأس يحفر بها في الأرض ويخرج صخورًا سوداء، والبعض الآخر يحمل الصخور السوداء ثم يلقيها في حفرة كبيرة عميقة.

كاد قلبه أن يتوقف عن الخفقان عندما رأى لسان نار عظيم يخرج من تلك الحفرة، نار شديدة الحمرة لكن بظل أسود.

تمتم بينه وبين نفسه: "هي نفس عين النار التي أراها من الكهف على مرمى البصر ولا شك، لكن لونها يبدو مختلفًا، وذلك الظل الأسود لا أراه من مكاني عند الكهف، مهلًا! كيف نستطيع أن نقف بجوار اللهب العظيم دون أن تلفح حرارته أجسادنا؟ أهي البوابة التي أتاحت لنا فعل ذلك؟

توقف عن التفكير، وقد لفت انتباهه شخص يقترب منه ويقول:

– تحياتي، اسمي "عمر".

عرفه "خالد" على الفور، إنه نفس الشخص الذي تحدث إليه قبل أن يعبر البوابة.

أشار "عمر" إلى مكان ما وهو يكمل كلامه:

– ستجد هناك ملابس تناسبك وأدوات للحفر، اذهب وارتدِ قميصك وأحضر أداتك، لتبدأ العمل.

ذهب إلى حيث أشار "عمر"، وفتش عن القمصان حتى وجدها، ارتدى واحدًا وأخذ أداة حفر وبدأ العمل معهم.. بعد فترة اقترب "خالد" من "عمر"، وقال:

– وأنا "خالد".

– مرحبا.

– ما هذه الصخور؟ ولماذا نلقيها في النار؟

أشار له "عمر" أن يصمت الآن على أن يتحدثا فيما بعد.

بعد ساعات من العمل الشاق، دوت صافرة حادة فتوقف الجميع عن العمل، توجهوا إلى بوابة أخرى ظهرت من العدم عبروها جميعا في صف واحد، اندهش "خالد" لرؤية ذلك الكم من الأطعمة المختلفة التي لم يرها من قبل، كما رأى أنواعًا عديدة من الشراب الذي لا يعرف طبيعته.

أشار "عمر" لـ"خالد" أن أقبل، وحين اقترب منه همس:

– هي صخور تعمل كوقود للنار؛ تبقي عليها مشتعلة باستمرار، هي نفس النار التي أشعلها لنا أسيادنا لتدفئ لنا الأرض، وإلا كنا هلكنا منذ زمن بعيد، لا بد أنك من المتفانين حتى يختارك الأسياد لمثل هذا الدور العظيم.

سأله "خالد" بصوت حذر:

– أهذا هو العمل الذي سأقوم به كل يوم؟ ألن يتبدل في مرحلة ما؟

عقد "عمر" حاجبيه ولم يجد ردًّا، من الواضح أنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل، لكنه قال:

– بحسب ما يرى الأسياد.

بعد تناول الطعام الشهي، عبر الجميع البوابة رجوعًا إلى عملهم، بدأ "خالد" يؤدي عمله في همة ونشاط؛ فكل ما يشغله الآن رضا الأسياد عنه، فهو يوقن من داخله مثله مثل الجميع أن الأسياد يراقبونهم طول الوقت.

****

بعد فترة من العمل المستمر التي لا يستطيع أي منهم تحديدها، دوت الصافرة الحادة مرة أخرى معلنه انتهاء عمل اليوم، تنهد "خالد" وأخذ نفسًا عميقًا ثم خلع القميص ووضعه في مكانه، وهمَّ بالتوجه صوب البوابة التي جاء منها ليخرج ويعود إلى الكهف، متلهفًا إلى لقاء أمه ليخبرها عن أول يوم عمل له في خدمة الأسياد، وبينما يرتب الأمر في رأسه سمع "عمر" يقول:

– "خالد"، أين تذهب؟

– سأتخذ نفس الطريق وأعبر البوابة لنعود إلى كهوفنا.

ضحك "عمر"، وهو يتجه نحوه ويقول بصوت ساخر:

– لم يعد هناك عودة، لقد تغير أحد القوانين، لقد انتشرت الأخبار منذ أيام، المكلفون حتى سن الخامسة والعشرين سوف يعملون ويبيتون في ضيافة الأسياد حتى يُؤذن لهم بالانصراف.

أُسْقِطَ في يد "خالد"، فقد كانت المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الكلام، لم يتمالك نفسه وهو يسأل في ضيق واضح:

– ومتى تغيرت ؟

– اليوم هو أول أيام التغيير.

عقد "عمر" حاجبيه وهو يقول في حذر:

– وهو أول أيام تكليفك، أليس كذلك؟

أومأ "خالد" برأسه دون أن يتكلم.. ثم التفت إليه:

– إن أمي ستشعر بالقلق عليَّ، وحتمًا ستشعر بالوحدة، فأنا لم أبيت خارج الكهف من قبل.

نظر إليه "عمر" نظرة استنكار وهو يقول:

– تقلق عليك وأنت في حضرة الأسياد! مستحيل، الأولى بها أن تشعر بالفخر.

الفصل التاسع

مرت الأيام على نفس النسق؛ العمل نفسه بالنهار، والحلم نفسه بالليل، يرى أنه يجامع نفس المرأة الجميلة.. وبمرور الوقت، لم يعد "خالد" يفكر في أمه ولا جده، لقد نسي شعور الاشتياق إلى أحبابه، وكأنه صار بلا أحباب، بدا أنه قد فقد هويته، وتحول إلى شخص آخر.. في البداية حاول جاهدًا أن يستعيد مشاعره وذكرياته مع أحبابه، لكنه وجد مقاومة شديدة من داخله، ورويدًا استسلم لحياته الجديدة وتوقف عن المحاولة.

انتبه إلى أنه منذ تكليفه أصبح يرى حلمًا واحدًا لا يتغير، يتكرر معه في كل ليلة، لكنه لم يلق بالًا للأمر؛ لقد تأكد من كلام "مراد" عن التكليف والذي يأتي بحلم واحد يراه المكلف كل ليلة.

في واحدة من الليالي، بينما يرى نفس الحلم الذي يجامع فيه المرأة الجميلة تميَّعت نفسه وتقززت، أعقبه شعور بالضيق والاشمئزاز، ثم بدأ في التقيَّؤ.. انتهى منه وقد تغيرت نظرته للأمور وتبدلت أحاسيسه، تسلل إلى قلبه شعور الكراهية لها ولما يفعله معها، تمنى لو استطاع أن يتوقف.. فجأة، بدأ شكلها يتبدل أمامه، لم تعد نفس المرأة الجميلة، لقد تحولت إلى عجوز قبيحة، قصيرة القامة، محنية الظهر، شعرها أشعث طويل، وعيناها صفراوان بلا حاجبين، وأنفها لا يكاد يظهر مع

ضخامة وجهها وفمها الكبير.. ثم استيقظ في فزع وخوف قبل الموعد المحدد ليقظة المكلفين، ولم يستطع النوم مرة أخرى.

في الليلة التالية رأى الحلم نفسه مع تفصيله واحدة مختلفة، لقد تغيرت المرأة، وعبثًا حاولت إغواءه لكنها لم تستطع.. ثم عاد به الأمر إلى سابق عهده، يرى كل بضعة أيام حلمًا جديدًا يستمر معه ثم يتغير.

****

كان يعلم أنه ممنوع عليه أن يبوح بأفكاره لأيِّ شخص كان، أو يتحدث عن أحلامه، هو لا يتذكر كيف يعلم ذلك، ولكنه يفعله وكأنه ولد به أو كأنها الفطرة، أمسك "خالد" نفسه عن الكلام طوال سبعة أسابيع منذ بدء تكليفه، إلى أن فاض به الكيل يومًا، فسأل "عمر" هامسًا:

- هل تحلم يوميًّا يا عمر؟

نظر إليه "عمر" في دهشة، ثم أجاب بصوت حذر:

- نعم، أنا أحلم يوميًّا منذ أن أتممت الثامنة عشر.

سكت لحظات ثم استطرد:

- مثلي في هذا مثل الجميع، هذا هو الحال، أليس كذلك؟

لم يجبه "خالد" على الفور، بل نظر إليه في شرود، ثم تجرأ وسأله:

– وماذا ترى في حلمك؟ وهل يتكرر الحلم نفسه معك يوميا؟

نظر إليه "عمر" في شك، عبَّرَ عنه صوته وهو يقول:

– من الأفضل أن نعُود إلى العمل، الآن.

ساد الصمت بينهما طوال ساعات العمل حتى ارتفعت الصافرة الحادة تعلن نهايته.. وقف "خالد" ينتظر "عمر" الذي يتجه نحوه وهو يجر قدميه جرًا، ساد الصمت بينهما قبل أن يقول "عمر" فجأة بصوت منخفض:

– نعم يا "خالد"، أنا أحلم يوميًّا بالحلم نفسه.

وقبل أن يسأله "خالد" عن ماهية حلمه استطرد "عمر" قائلًا في شموخ وفخر:

– أرى نفسي مُزارعًا ماهرًا؛ أغرس البذور في الأرض في همة ونشاط.

– وهل ترى التفاصيل نفسها يوميًّا؟

بُوغت "عمر" بالسؤال، وكأنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل، فعقد حاجبية يفكر في عمق، ثم قال:

– قد يختلف نوع البذور كما قد تختلف الكمية التي أغرسها، وفي كل مرة أنا أؤدي مهمتي المقدسة في رضا وفخر.

بدا على "عمر" التردد قبل أن يحسم أمره ويسأل ببطء:

– أنت تختبرني، أليس ذلك؟ هل أمرك الأسياد بذلك؟ أتظنني ضعيف الإيمان؟

ابتسم "خالد" رغما عنه وهو يقول في سرعة:

– لا لا، ليس الأمر كذلك.

أطلق "عمر" تنهيدة ارتياح.. ثم التفت إلى "خالد" بغتة وقال:

– لم يتبق إلا احتمال واحد، هل إيمانك ضعيف بمدى قدسية المهام الملقاة على عاتقك؟

نظر إليه "خالد" فزعًا، بعد لحظات أجاب سؤاله بسؤال:

– ولماذا تظن بي ذلك؟

– لا أدري، فأنت تسأل أسئلة كثيرة تعبر عن ضعف الإيمان.. احذر؛ فأنا أسمع حكايات عن رجال عصوا وجاهروا برفضهم لمهامهم المقدسة فناموا ولم يستيقظوا بعدها أبدًا، غرقوا في غيبوبة دامت مع البعض شهور، ومع أحدهم سنوات، حتى أن واحد منهم لم يستيقظ منها أبدًا.

ساد الصمت بعد تحذير "عمر" حتى وصلا إلى مكان نومهم.

****

تطورت الزمالة بينهما تدريجيًا حتى صارت صداقة، مما جعلهما يقضيان معظم الوقت معًا.. ظهر أن "عمر" يحب الثرثرة عن أحلام الآخرين، فكلما جلسا بمفردهما يحدثه "عمر" عن حلم أحدهم.. قال ذات مرة:

- هذا "عماد" يرى نفسه في الحلم يخدم عمالقة يقول عنهم إنهم الأسياد أنفسهم، وهذا "كامل" يرى نفسه نسرًا يصطاد القوارض، وهذا.

لم يدرك "عمر" ما يصيب "خالد" من دهشة في كل مرة يروي فيها حلم أحدهم، ذلك لأن "خالد" كان يعرف معظم تلك الأحلام جميعًا، ليس لأنه سمعهم بأذنيه من قبل، بل لأنه حلم بهم شخصيًا، يبتسم وهو يستمع إلى "عمر" في محاولة منه أن يداري ما ينتابه من دهشة.

في مرة من المرات بعد أن روى له "عمر" حلم أحدهم نظر إلى "خالد" في دهشة، وكأنه قد تذكر شيئا ما، ثم قال:

- أنت لم تخبرني عن حلمك!

- أرى.. وكأني.. وكأني أجامع امرأة جميلة.

خرجت الكلمات مبعثرة مقطعة من فم "خالد"، لكن "عمر" أومأ برأسه في تفهم، ثم قال:

- هممم، هكذا إذا، لقد اختارتك الأسياد للمتعة والترفيه عنها.

الفصل العاشر

في أحد الأيام، بعد انتهاء ساعات العمل المعتادة، فوجئ "خالد" بـ"عمر" يهرول تجاهه قائلًا بصوت غلب عليه الحماس:

– أخبار جديدة، لقد أذن لنا الأسياد بالذهاب إلى كهوفنا ورؤية ذوينا.

– وكم المدة؟

– سبعة أيام.

بذل "خالد" مجهودًا كبيرًا ليخفي مشاعر الفرحة بداخله، بالأخص عندما رأى البعض يبكي، وآخرين يصرخون قائلين: "أسيادنا، لا نريد فراقكم".

****

ترجل "خالد" من العربة أمام الكهف، عندما اطمأن إلى مغادرتها نزع قناع الغشاوة عن عينه، وبدلًا من أن يسجد للتمثال جرى في لهفة إلى الداخل؛ ليرى أمه.

انتبهت الأم إلى صوت العربة من البداية وتمنت أن يكون ابنها قد عاد، وقفت في لهفة تنتظر رؤيته، لم يغطي شعور السعادة الذي غمر قلبها آثار التعب الذي بدا واضحًا على وجهها.. أطل الحزن من عينيه بمجرد أن رآها، ثم قال:

– سامحيني يا أمي، لم أكن موجودًا بجوارك.

ابتسمت ابتسامة حانية وهي تقول بصوت بدا عليه الإعياء:

– لا عليك يا بني، فهو تكليفك وقدرك الذي اختاره لك الأسياد.

أعدت له الطعام، بدأ يلتهمه بنهم واضح وقد اشتاق إلى طعامها الذي تعود عليه، لكنه توقف فجأة عندما لاحظ أنها لا تأكل معه، رفع رأسه يتطلع إليها وعرف السبب؛ لقد كانت تتأمله بشوق أنساها الطعام، لاحظت تطلعه إليها فتنحنحت ثم ابتسمت له قائلة بصوت غلب عليه السرور:

– هلَّا جلست بجواري.

قام "خالد" على الفور وتوجه إلى أمه ثم جلس بجوارها، فسألته:

– ماذا بك؟ إنك تبدو مختلفًا، كأنك تحمل فوق ظهرك هموم الدنيا كلها.

لقد أصابت الأم كبد الحقيقة، تجهم وجهه ثم ردد خلفها بصوت خاوٍ:

– مختلفا!

– أنت لا ترى نفسك، إنك تتحدث بآلية دون إحساس، كأنك لم تنم منذ أيام، أو ربما أنك ما زلت نائمًا بالفعل.

ثم صمتت لحظات قبل أن تستطرد في ارتباك:

- لا أدري يا بني، أنا لا أستطيع التعبير عما أريد أن أقول، لكنك حزين.

صمت "خالد" بعد كلام أمه وشعر بغصة في حلقه، ثم حسم أمره وقال بصوت حزين:

- هل أنا عاصٍ أو ملعون يا أمي؟

انتفض جسدها وهي تستمع إليه قبل أن تتمالك نفسها وتهتف بصوت عالٍ:

- لا لا، لا تردد مثل ذلك الكلام مرة أخرى.

ساد الصمت بعدها، وقلب الأم يخفق في قوة، عندما هدأ أخيرا سألته في شفقة:

- لماذا تقول هذا الكلام؟

دفن وجهه بين يديه ثم انفجر في البكاء وهو يقول بصوت متقطع:

- ليس لي حلم واحد مثل الباقين، إن أحلامي تتغير باستمرار، حتى القوانين تغيرت في نفس يوم تكليفي.

ثم رفع عينيه إليها وهو يضيف:

- أنا لا أشعر بالسعادة في العمل نهارًا أو في أحلامي ليلًا.

ثم أجهش بالبكاء وهو يدفن وجهه بين يديه مرة أخرى، دمعت عينا الأم وهي تقول بصوت خرج بالكاد من فمها:

- كهف المعرفة.

لم يبدُ له أنه سمعها فرفع وجهه ينظر إليها من بين دموعه وقال:

- ماذا تقولين؟

- كهف المعرفة يا "خالد".

- وماذا يكون هذا الكهف؟

قالت في صوت يحمل يقينًا عميقًا:

- هو مكان يذهب الناس إليه كي يتوسلوا إلى الأسياد ليطلعوهم على ما بهم من علل، وما يجب عليهم فعله ليُشفوا من تلك العلل ويتحسن حالهم.

هدأت نفس "خالد" قليلًا بعد أن سمع كلام أمه ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول في حذر:

- وهل هذا الأمر مُجرب؟

– كثيرًا، اذهب الآن إلى غرفتك لترتاح، وسوف آخذك إليه في الصباح.

ثم التفتت إليه في سرعة وكأنها قد تذكرت أمرًا ما، فسألته:

– ما مدة الإجازة؟

أجابها وهو يتوجه إلى غرفته دون أن يلتفت إليها:

– سبعة أيام.

لن أعيش حياتي غارقا في الأحلام سأتجاوز الحدود وأحطم الجدران

الفصل الحادي عشر

عندما فتح "خالد" صندوق ملابسه أصابته الدهشة لمرأى نور يخرج منه، فتش الصندوق بحثًا عن مصدره حتى اهتدى إليه، لقد كان المصدر هو المخطوطة التي ربطها له جده حول صدره من قبل، لقد نسي أمرها تمامًا، بل نسي أمر جده نفسه وكلامه كله.

أخرجها من الصندوق، تداعت عليه الذكريات وعصف به الحنين إلى رؤية جده، فحاول الهرب من ذكرياته؛ فأسرع يعيد المخطوطة لمخبأها، بمجرد أن وضعها في الصندوق وأبعد يده فوجئ بنور الكلام ينطفئ؛ أسرع يمد يده داخل الصندوق مرة أخرى أخرج المخطوطة فعاد النور من جديد.. بلا مقدمات تذكر كلام جده كله، دفعة واحدة، رآه بعين الماضي يخبره ألا ينزعها عن صدره أبدًا، بحركة آلية وضع المخطوطة على صدره، فوجئ بنورها يشتَّد، ثم التصقت به وانعقدت الأربطة على ظهره من تلقاء نفسها.

لم تطل دهشته كثيرًا، ما إن أن استلقى على الفراش نام من فوره حتى قبل أن تصل الساعة إلى الثامنة.

وفي منامه، رأى أنه يسير في أرض خضراء، ثم رآه مرة أخرى، نفس الرجل الذي يشع منه النور يقف وسط زرع نضر، يقف مبتسمًا نفس الابتسامة الصافية التي رآه من قبل، والتي تبعث الراحة في نفسه.. يتكئ بيده على عصا عجيبة

تغطيها النقوش من كل جانب، تشبه إلى حد ما المخروط، فهي عريضة عند منطقة المقبض إذا ما قورن مع طرفها السفلي، ممسكًا باليد الأخرى إبريق فضي لامع.

تكلم الرجل بصوت هادئ عميق:

- أقبِلْ يا "خالد".

مع السكينة التي يشعر بها لم يملك إلا الطاعة، اقترب منه ثم وقف أمامه، مد الرجل يده الأخرى الممسكة بالإبريق، وقال بنفس الهدوء وهو يميله:

- اغسل يديك.

انسكب الماء، وغسل "خالد" يديه.

ثم أكمل الرجل بنفس الهدوء:

- مضمض فاك ثلاثًا واشرب ثلاثًا.

بعد أن فعل "خالد" ما طُلب منه، أمسك الرجل يده وسار به بين الزروع.

ثم توقف الرجل أمام بئر ما، ماؤها صافٍ جميل، وطلب منه أن ينزل إلى البئر ويغتسل، نفذ دون نقاش، ثم خرج ليجد الرجل قد اختفى تاركًا عصاه على الأرض، تردد "خالد" كثيرًا، ثم حسم أمره وانحني يأخذها.

****

استيقظ من نومه فجأة، قبل ميعاد استيقاظ المكلفين صباحًا، لبث في فراشه برهة يتذكر ما رأى، ثم خرج من غرفته فوجد أمه تنتظره وقد أعدت الإفطار، فجلس من فوره ليتناولا الطعام معًا، تطلع إلى وجهها الذي يُظهر تحسنَ حالها فسرَّه ذلك كثيرًا.. وبعد الإفطار نظرت إليه قائلة:

– سوف آخذك إلى هذا الكهف اليوم.

– لا عليك يا أمي، سأذهب وحدي.

حاولت أن تثنيه عن رأيه دون جدوى، لقد عقد العزم على الذهاب وحده بالفعل، وفي النهاية رضخت إلى رأيه.. بعد فترة من الصمت نظرت إليه قائلة في صرامة مباغتة:

– خالد.

–تطلع إليها قائلًا.

– نعم يا أمي.

– عندما تتواجد هناك أريدك أن تتبع القواعد، ستجد أمام الكهف خمسة تماثيل، يجب عليك أن تركع لهم جميعًا، بعد أم تنتهي تضم يديك وترفعهما أمام وجهك وأنت تنظر إلى أسفل، ثم تسأل في توسل أن يخبروك ما بك وما يجب عليك فعله، وإن قبلوا توسلك فستسمع صوتا من داخل الكهف يخبرك بكل شيء، ثم وصفت له الطريق، وذهب وحده.

بدا الكهف كما وصفته له أمه تمامًا، منزوٍ في ركن من الجبل، من أمامه أرض منبسطة يصطف عليها خمسة تماثيل للأسياد عرفها خالد من أحلامه، أسد ونمر وثعبان وعجل وكلب، لا يوجد له مدخل ولكن كوة صغيرة.

وقف أمام التماثيل، وهم بالركوع لكنه لم يفعل؛ لقد تسمر في مكانه وكلام جده يدوي في أذنه "لا تسجد لتمثال أبدًا"، اكتفى بضم يديه أمام وجهه، تردد لحظات ثم قال بصوت خافت: "أخبروني؛ ما بي؟ وما هي علتي؟ وماذا عليَّ أن أفعل؟"

رفع عينيه يتطلع إلى الكهف في انتظار أن يسمع الجواب، بدلًا من سماع صوت أحدهم، خرجت من الفتحة ورقة تتطاير أمامه، اندهش لرؤيتها، وفي تردد مد يده ليأخذها، فوجئ بها تحترق من تلقاء نفسها ويتناثر رمادها، ازداد تسمره بالأرض لا يدري ملذا يفعل، بدا وكأنما عدد التماثيل قد ازداد به واحدًا، سمع فجأة صوت مدوِّي يشبه النقر المتتالي يصرخ آمرًا: "اقتلوه".

لم يكن الصوت قد انتهي من إعطاء الأمر حين دبَّت الحياة في التماثيل وتحركت تنفذه.

أيقن "خالد" أنه هالك لا محالة؛ فهو يعلم بقدرات تلك التماثيل من خلال أحلامه، ويعرف ما تستطيع فعله، تحركت التماثيل نحوه في بطء وثقة وغريزة القتل تطل من أعينها وتشل حركته.. فجأة، هبط أمامه جواد أبيض مجنح بقرن طويل في منتصف جبهته، وانحنى، دون مقدمات فهم "خالد" ما عليه فعله، لم يضيع لحظة

واحدة، وقفز يعتلي ظهره، صهل الجواد صهله قوية طويلة ثم طار به يشق الهواء مبتعدًا.

الفصل الثاني عشر

تشبث "خالد" بشعر الجواد الطويل المنسدل على رقبته، وهو يحلق على ارتفاع كبير من الأرض، كان يشعر بدوَّار يكتنف رأسه في كل مرة يتطلع فيها إلى الأسفل.. بمرور الوقت تعود على الأمر، ثم بدأ يشعر بالهدوء الذي تحول رويدًا إلى شعورٍ بالأمان، ودون أن يدري وجد نفسه يفرد يديه على جانبه مطلقًا صيحات فرح عالية.

يبدو أن الجواد يعرف ما عليه فعله؛ فهو يطير في اتجاه معين، وبعد فترة من التحليق هبط على الأرض بالقرب من رجل يقف موليًا ظهره إليها، ترجل "خالد" من على صهوته غير مصدق ما يراه؛ إنه نفس المكان الذي كان الجد يدربه فيه على القتال بالسيف، سار ببطء ناحية الرجل موقنًا أنه هو نفسه، ثم صاح بفرحة عارمة: "جدي! أين كنت؟ لقد اشتقت إليك"

وقف الجد في جمود دون أن يجيبه أو يلتفت إليه، دار "خالد" حوله، ثم وقف أمامه يتطلع إلى عينيه الشاردتين بعيدًا، اعتصر الألم قلبه ثم قال: "ماذا بك؟"

تحركت عينا الجد ببطء حتى تلاقت عيناهما، بدأ ينتبه إلى وجوده أمامه، ثم ابتسم قائلًا بصوت ما زال يغلب عليه الشرود: "بني، لقد اشتقت إليك"

احتضنه "خالد" ملقيًا برأسه على صدره ثم قال: "وأنا أيضا اشتقت إليك كثيرا"

ركب الاثنان على صهوة الجواد، كمن يعرف طريقه جيدًا طار بهما إلى حيث يوجد كهف "خالد" وهبط أمامه مباشرة، قفز "خالد" من على ظهره، ثم ساعد جده على النزول، وأسرع إلى داخل الكهف صارخًا بأعلى صوته:

- أمي، أمي.

- ماذا هناك؟

- أريدك أن تأتي معي إلى الخارج، تنتظرك مفاجأة عظيمة.. هيا أسرعي أرجوك.

تبعته الأم إلى الخارج مسرعة، أدركته وهو يضرب كفًا بكف ويتلفت يمينًا ويسارًا ثم ينظر إلى السماء في حيرة، فسألته:

- ماذا هناك؟ وأين المفاجأة؟

نظر إليها في حيرة ولم يجب، لقد اختفى جده والجواد كلاهما، لفت نظره عصى ملقاة على الأرض وبجوارها كتاب ما، فانحنى من فوره يلتقطهما، وأصابته الدهشة عندما تأمل العصى عن قرب؛ لقد كانت عصى رجل النور بنفس التفاصيل التي رآها في حلمه.

****

عندما ذهب إلى فراشه في تلك الليلة كان عقله يئن من كثرة ما يحمل من الأسئلة التي لا يجد لها إجابات شافية، كيف تحركت تلك التماثيل؟ ولماذا علا ذلك الصوت يأمر بقتله؟ بل من صاحب هذا الصوت؟ هل هم الأسياد؟

لم يستطع منع ابتسامة تسللت إلى شفتيه عندما تذكر الجواد الطائر، لكن بمجرد أن تذكر جده اعتصر قلبه الألم؛ لقد بدا جده شارد الذهن يعلو وجهه آثار الوهن.. غادر صوت أفكاره حدود عقله رغمًا عنه وتحركت شفتاه وقال: "ولكن أين ذهب؟" وهنا تذكر أمر الكتاب والعصا اللذين وضعهما بجواره على الفراش، تطلع للعصا، ثم أمسك بالكتاب، لفت نظره العنوان، ردده في دهشة: "كتاب الحكمة، فيه حكم كل شيء".

فتحه فأصابته الحيرة؛ لقد كان الكتاب فارغًا، لم يجد فيه كلمة أخرى بخلاف العنوان، حاول جاهدًا أن يجد تفسيرًا لذلك، لكن النعاس هاجمه بلا مقدمات، فنام على الفور.

الفصل الثالث عشر

رأى نفسه يمتطي ظهر الجواد الطائر، في البداية ظن أنه يرى المشهد من منظور آخر ذلك بأنه يقف على الأرض يتطلع إلى الجواد، ثم انتبه إلى أمر عجيب، لقد كان هناك نسختان منه، "خالد" و"خالد"، نسخة تقف على الأرض، والأخرى تمتطي الجواد، وكلتا النسختين تجذب الأخرى إليها.

وقف مشدوهًا يراقب المشهد الغريب، ثم وجد نفسه يرتفع عن الأرض رغمًا عنه، وهو يطير في الهواء صوب نسخته الأخرى التي تعتلي صهوة الجواد، وانطبقت النسختان معًا، وأصبحا واحدًا، ثم طار بها الجواد بعيدًا يشق السماء، حتى هبط على نفس الأرض الخضراء التي رآها في حلمه، بجانب رجل النور الذي يجلس على الأرض ممسكًا بكتاب في يده، خمَّن على الفور أنه الكتاب نفسه.

ترجل عن صهوة الجواد، ثم جلس بجوار الرجل الذي تطلع إليه ثم تحركت يده وفتح الكتاب، فأخبره "خالد" أن الكتاب لا يحتوي على أية كلمات، ابتسم الرجل دون أن يعلق، كان بالفعل مجرد صفحات بيضاء خالية من الكلام، لكن ما أثار اهتمام "خالد"، وجعله يعقد حاجبيه ليس أن الرجل أغمض عينيه، ولكن ما حدث بعدها، فقد بدأت صفحات الكتاب تتحرك بسرعة ومن تلقاء نفسها، ثم فتح الرجل عينيه، فهدأ الكتاب.

عقد "خالد" حاجبيه أكثر وأكثر حين بدأت الحروف تظهر زرقاء بلون السماء نهارًا وهي تشكل كلمات وسطورا، في البداية لم يفهم منها شيئًا؛ فقد كانت مكتوبة بلغة غريبة، ثم وضع الرجل إحدى يديه على قلب خالد والأخرى على رأسه، وعندما أزاحهما بعيدا عنه قال بصوته الهادئ العميق وابتسامته الصافية تعلو وجهه: "اقرأ يا خالد".

أراد أن يخبره بعدم معرفته لهذه اللغة، لكنه وبدلًا من ذلك، وجد نفسه ينظر إلى الكتاب ويقرأ: "لم ينسَ الجن أنهم كانوا أسياد الأرض حتى جاء الإنسان وأخذ منهم البنيان، فمكثوا هناك في الظلام، يتحينون الفرصة لينقضوا ويستعيدوا الملك منه، يساعدهم على ذلك الشيطان.. عندما تكثر معاصي الإنس، وتنتشر الكراهية والحسد بينهم، لدرجة استعانة أحد الإنس بالجن في عمل الأسحار لأخيه، عندها سيشرك الإنسان ويتبع الشيطان.. لسوف يجتمع كل سحرة الجان ليصنعوا سحر شطر النفس وتمزيق الروح، في البداية سيحيى الإنسان بجسده ونصف نفسه وروحه المدبِّرة في النهار، وفي الليل سيحيى بما يختارونه له من أجزاء روحه ونصف نفسه الأخرى مع روح الخيال، يختارونهم بحسب هواهم ورغباتهم وشهواتهم.. وتنقلب الآية، ويسخر الجان الإنسان، ثم بالتدريج سوف يحدث الاستحواذ التام، ويسود الظلام ويتحول الإنس إلا عبدة الشيطان".

بمجرد أن توقف عن القراءة اختفى الكلام، وأُغلق الكتاب من تلقاء نفسه، فارتبك "خالد"، إذ لم يكن يفقه أيَّ شيء مما قرأه، هو في الحقيقة لا يعرف ما الجان، وما الشيطان، فتذكر ذلك الشكل المخيف الذي استحالت إليه المرأة الجميلة

في حلمه، تمتم بينه وبين نفسه: "أهو شكلهم الحقيقي؟! ولكن ما هي أجزاء الروح وما النفس؟".

فتح الرجل الكتاب مرة أخرى وتحركت الصفحات من تلقاء نفسها قبل أن تثبت، وظهرت الكلمات، وبدأ "خالد" القراءة: "إن العقل هو ذات الإنسان وجوهره، يخرج منه صلة مباشرة إلى القلب، والقلب هنا ليس القلب الذي ينبض في الجسد، ولكنه جوهر النفس، والذي يحتوي على الفؤاد واللب، أما اللب فهو خلاصة الفطرة السليمة النقية، وهو محل الضمير، والفؤاد وعاء الأشجان والأحاسيس والمشاعر، وهو محل الهوى، وبخلط الفؤاد واللب معًا يتكون القلب، وبمدى تأثر القلب بمكنونات العقل تتكون النفس".

نظر "خالد" إلى الرجل نظرة تعجب وهو يقول ببطء: "لم أفهم شيئًا مما قرأت".

بدأ الرجل الكلام مرة أخرى، لكن في هذه المرة ظهرت أمام "خالد" صورًا حية تحكي الأحداث: "إن الجن أو من تسمونهم الآن بالأسياد قد وُجِدوا على الأرض قبل خلق الإنسان، كانوا يحكمون الأرض، ويفعلون ما يشاؤون فيها.. حتى توقفوا عن عبادة الإله الذي خلقهم، ثم أخذوا يعصونه، وبدأ الظلم ينتشر في ربوع الأرض، كما انتشر القتل والترويع، فكان القوي منهم يظلم ويقتل الضعيف.. وبمرور السنين، اتضح للجن أنفسهم أنهم ليسوا أهلًا للخلافة على الأرض، ثم خلق الإله الإنسان في هيئة مختلفة عن الجان، وأوكل له مهمة الخلافة وإعمار الأرض، وزال مُلك الجان وانحصر، ليبدأ مُلك الإنسان.. عاش الإنسان يتخبط بين الخير والشر وبين

الظلمة والنور، لكن نفر من الجان لم ينسَ أن الإنسان اغتصب منه مُلكه كما كان يحلو لبعضهم أن يرددوا، فمكثوا هناك يتحينون الفرصة حتى يستعيدوا مُلكهم.. حتى حانت لهم الفرصة حين بدأ الكره والحسد بين الإنس ينتشر، وجاءت اللحظة الفارقة حين تمنى إنسان ما أن يستحوذ على ما بيد أخيه حتى لو فعل أيَّ شيء في سبيل ذلك، فوسوس الشيطان – العدو الأول للبشر – لهذا الإنسان وعلمه كيف يسحر أخاه ويضره، وانتشر السحر بعده وكان الجان خدامه.. ليعود الجان إلى الأرض وشعور الرضا يغمرهم حين أوكل الإنسان إليهم الخدمات، لكنهم أبدًا لم ينسوا أنهم كانوا الملوك على الأرض.. ثم حين عم السحر الأرض وانتشر وكثر استعانة الإنسان بهم، زاد سلطانهم حتى ملكوا الأرض مرة أخرى، وأغرقوها في الظلمات، واستعبدوا الإنسان نفسه".

لم يتمالك "خالد" نفسه وسالت دموعه تغرق خديه؛ لقد رأى كيف كان الإنسان وكيف أصبح وكيف هوى، كيف كان السيد بالحب والخير وكيف أمسى عبدًا ذليلًا خائفا، بكى وهو يرى مدى كره الشيطان هو ومعظم الجان للإنسان.

أخرجه رجل النور من أفكاره، وهو يمد يده ويمسح له دموعه ويقول: "أمامك مهمة جليلة، يا خالد".

ووضع يديه مرة أخرى على صدره ورأسه، ثم أبعدهما قائلًا: "أنت الآن تعرف لغة الجان".

ثم اختفى الرجل فجأة، لكن صوته ظل يتردد عاليا، حتى أن "خالد" كان يسمعه يأتي قويًا من كل اتجاه: "يجب عليك أن تتجاوز الحدود، وتحطم الجدران؛ وترى ما وراء أحلامك".

وصهل الجواد بصوت قوي، فقفز "خالد" يعتليه، ثم أُلقِيَ إلى "خالد" بسيف فالتقطه في الهواء وهو لا يرى من ألقاه إليه، لقد كان نفس السيف الذي أعطاه له جده من قبل.

طار الجواد بعيدا بسرعة كبيرة، ثم بدأت التفاصيل تختفي من حول "خالد"، وازدادت السرعة حتى لاح له أنه يطير في العدم، فأخذ قلبه يخفق في قوة، وبدأ يشعر بضغط شديد على صدره، وكأنما هناك قوة هائلة تعتصره من الداخل، وفجأة دخل به الجواد نفقًا مظلمًا، فشعر كأن روحه تُسحب منه رويدًا حتى أصبح على وشك الدخول في غيبوبة قوية تهاجم عقله، وتسعى لشل إرادته، وكاد أن يستسلم إليها، ثم لمح ضوءًا في نهاية النفق المظلم، ثم دوى صوت الرجل مرة أخرى قويًا وهو يقول: "انقذْ أمك يا خالد".

وكأنها كلمة السر؛ لقد دبَّت الحياة في جسده وانتعش عقله فقاوم تلك القوة التي تعتصر داخله، أخذ يقاوم ويقاوم، ثم هدأ كل شيء فجأة، وجد نفسه يسبح في فراغ وسط نور خافت يبعث على الشعور بالسكينة.

التفت "خالد" إلى يمينه فوجد الجواد مغمض العينين، يسبح إلى جاوراه في الفراغ وجناحيه يتدليان دون أي حركة.. كل شيء يوحي بأن الجواد قد مات، ثم

حرك أحد جناحيه فجأة، وفتح عينيه وصهل وبدأ يتحرك، وطار تحت قدمي "خالد" الذي وجد نفسه يمتطي ظهره بالفعل، وعاد ينطلق مرة أخرى.

توقف الجواد في الهواء بجوار نافذة كبيرة مسدسة، أطل "خالد" برأسه يتطلع إلى ما يوجد وراءها، فاصطدم بصره بمشهد عجيب، لقد رأى امرأة عملاقة ترتدي ثوبًا شبه عارٍ لها شعر طويل بصورة ملفتة، وتمسك برقبة امرأة أخرى صغيرة الحجم تكبرها سنًّا، وترفعها عن الأرض بيد واحدة، وبسهولة.

هاج "خالد" وجن جنونه؛ عندما أدرك أن المرأة الأخرى أمه، فقفز من على ظهر الجواد يعبر النافذة إلى الداخل ثم جرى في سرعة، ودفع العملاقة بمنتهى القوة، فوجئت العملاقة بتلك الدفعة فاختل توازنها وسقطت على الأرض، اندهشت الأم التي وقعت على ظهرها عندما أفلتتها يد العملاقة، من مكانها على الأرض أخذت تنظر إلى ابنها بذهول غير مصدقة أنه هنا معها.

تقدم منها ممدًا يده إليها يساعدها على النهوض، لكنه فوجئ بها تدفعه بعيدًا لتتلقى هي الضربة الغادرة بدلًا منه، انغرس طرف الخنجر الذي أرادت العملاقة أن تقتله به من الخلف في كتف الأم؛ فصرخت من شدة الألم، ثم علت صرختها حين نزعته المرأة من كتفها في غلظة، ثم طوحت به يدها لتغرسه هذه المرة في صدرها، لكن لم يلامس جسد الأم؛ لقد صده خالد بسيفه.

نظرت إليه العملاقة نظرة نشرت الرعب في أوصاله، ثم أطلقت ضحكة ساخرة ثم نقلت الخنجر إلى يدها الأخرى، واتجهت إلى الحائط خلفها، تناولت سيف كبير

معلق عليه وحملته في يدها، قبضت بقوة على نصله وأخذت تلوح به يمينًا ويسارًا في سرعة ومهارة، اتجهت الأم إليها تتوسلها أن تعفو عن ابنها وتتركه يرحل، لكن العملاقة دفعتها في غلظة، فوقعت على الأرض وتدحرجت حتى اصطدمت بالحائط، وقبل أن يبدي "خالد" أي رد فعل، فوجئ بها تطلق صرخة عالية ثم تنقض عليه في محاولة منها لغرس سيفها في قلبه.

صدَّه بسهولة وأزاحه جانبًا مستخدمًا سيفه، اندهشت العملاقة واندهش "خالد" نفسه؛ لقد شعر بقوة هائلة تدب في بدنه.. كانت معركة حامية أظهر فيها كلا الخصمين قوته ومهارته في استخدام السيف، وبعد فترة من القتال، استطاع "خالد" أن يطيح بسيفها، ثم دفعها فوقعت أرضًا، كان في استطاعته قتلها بسهولة، لكنه بدلًا من ذلك تركها، والتفت ناحية أمه قائلًا في لهفة: "أمي!".

أسرع الخطى إليها، توقف أمامها وانحنى يمد لها يده ليساعدها على النهوض، لكنه رأى الخوف يطل من عينَيْها وهي تنظر خلفه، فهم "خالد" واستدار مستخدمًا سيفه، كانت الضربة قوية حتى أنها فصلت يد العملاقة عن جسدها لتسقط بجوارها وهي ما زالت قابضة على السيف، مما جعلها تطلق صوتا شبيه بمواء القطط، وهنا أمسكت بالخنجر مستخدمة اليد الأخرى، وأشهرته عاليًا وهي تندفع ناحيته، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقفز عاليا ويفصل رأسها عن جسدها بضربة سيف واحدة.

الفصل الرابع عشر

استيقظ "خالد" من نومه يلهث بشدة، لم ينتظر جسده الذي ينتفض حتى يهدأ بل قام وغادر غرفته مهرولًا إلى غرفة أمه، اقتحمها مناديًا عليها بلهفة، لكنها لم تجِبه، ولم يجد لها أثرا.

فنادى بأعلى صوته:

– أمي.. أمي.

دوت صوت ضحكة ساخرة يصم الآذان، جرى مسرعًا ينظر خارج الكهف، وتسمر في مكانه، ليس لأنه تأكد أن مصدر الضحكة هو التمثال خارج الكهف، ولكن لأن ذلك التمثال قد دبت فيه الحياة وبدأ يتحرك.. وقف مشدوها وهو يقرأ ما كُتب على قاعدة ذلك التمثال بلغة الأسياد "سيد النار" ولسبب ما لم يستغرب ما قرأ.

أنزل "سيد النار" يده التي تخفي وجهه فظهر وجهه واضحًا وفزع الجميع، ليس فقط "خالد" بل جميع سكان الكهوف الذين خرجوا ليروا ما يحدث، بدا "سيد النار" أصلع، يخرج من جبهته قرنان طويلان، كل منهما يلتف في مسار حلزوني لأعلى، يسيل الدم من عينيه، وتخرج نار من فمه.

تحدث سيد النار موجهًا كلامه إلى "خالد"، خرج صوته أشبه بالفحيح عندما قال: "أظننت أن المعركة قد انتهت؟ هي لم تبدأ من الأساس".

كان الجميع يتطلع إليه في رعب يمتزج بالدهشة، ثم علا صوت أحدهم: "العصا والسيف، يا بني"، التفت "خالد" إلى مصدر الصوت فرأى جده الذي ظهر فجأة وهو يقذف بالعصا والسيف إليه، فالتقطهما بمهارة، والجد يتكلم موجهًا هذه المرة كلامه إلى الناس: "فليتبعني الجميع إلى الأرض المنخفضة".

بالفعل بدأ الجميع في السير خلفه و"سيد النار" يطلق عليهم من فمه نارًا كثيفة ليحرقهم، لكن "خالد" اندفع ناحيته شاهرًا سيفه، فأخرج "سيد النار" سيفه من تحت ردائه وهو يرمقه في كره واضح، والتحم السيفان وبدا كأن الجبل على وشك أن ينهار، بل يُدك دكًّا.

"خالد" وسيد النار يقتتلان، والناس تحاول الفرار خلف الجد.. ألقى "سيد النار" بعصاه التي تشبه الصولجان، فتحولت إلى تنين يشبه ثعبانًا ضخما له زوجين من أرجل السحالي، وجناحين كالخفافيش، طار بهما من فوره وهو ينفث النار عليهم، ثم ظهر الجواد فجرى "خالد" ناحيته وقفز عاليًا يمتطي ظهره.

طار الجواد خلف التنين غير مبال بالنيران التي تنتشر هنا وهناك، وكاد "خالد" أن يغمد سيفه في أعلى رأسه لكن التنين انتبه إليه ولطمه برأسه لطمة قوية اقتلعته من على ظهر الجواد وألقته في الهواء، كان "خالد" يسقط في انتظار أن يصطدم بالأرض، لكن الجواد طار تحته والتقطه وعلا به مرة أخرى.

أشار "سيد النار" بيده فعاد التنين أدراجه إليه، امتطى ظهره وطار به يلاحق "خالد".. وصل الجواد إلى الأرض الممهدة يتبعه التنين.. بمجرد أن حطَّا على الأرض

استعاد التنين هيئة العصا مرة أخرى، قفز "خالد" إلى الأرض في مهارة وهجم على سيد النار والتقى السيفان مرة أخرى.. كانا يكيلان الضرب لبعضهما البعض حين وصل الجد ومن خلفه الناس، وقف الجميع يتطلع إلى القتال الدائر بينهما.

و"خالد" يكر ويفر في خفة وقوة أدهشت الجميع، بل إنها أدهشت "سيد النار" نفسه حتى أنه قد يئس من قتله فرمى العصا مرة أخرى لتتحول إلى التنين نفسه الذي أخذ يقذف من فمه النار ليصنع ما يشبه الدائرة حول الناس، كما صنع دائرة نار أخرى حول "خالد" نفسه.

تسمر "خالد" في مكانه كما تسمر الجمع المحاصر بالنيران، حاول الجواد أن يخترق النار لينقذه لكنه لم يستطِع، وعبثًا حاول "خالد" الخروج منها فلم يقدر، وبدا أن "سيد النار" قد انتصر، علا صوته وهو يقول بلهجة قوية آمرة: "اسجدوا لي، أيها العبيد"، ثم قهقه عاليًا بصوت يشبه الأجراس.

بدأ بعض الناس بالفعل يسجدون له، وصوت ضحكاته يدوي في الأذان.

سمع "خالد" صوت رجل النور يدوي من حوله قويًّا واثقا وهو يقول: "ألقِ عصاك"، انتبه "خالد" إلى أنه ما زال يمسك بالعصى فألقاها بكل ما أوتي من قوة خلف النار.

ثم ظهر تنين آخر، تنين رمادي كبير، ومع ظهوره توقف سيد النار عن الضحك وساد الصمت فجأة إلا من صوت رفرفة جناحي التنين وهما يضربان الهواء في قوة.. فتح فمه ونفث، فخرج منه هواء أبيض بارد أطفأ النيران من حول "خالد"

ومن حولهم، ثم نفَثَه في وجه تنين الثعبان الذي بدأ يتجمد في مكانه، ثم تحول إلى تمثال من الثلج، توجه الجواد إليه وطعنه بقرنه فنفذ منه، وتحطم، وتناثرت بقاياه على الأرض.

كان الجميع ينظر في انبهار إلى ما يحدث بما فيهم "سيد النار" نفسه، فاستغل "خالد" الفرصة ورفع سيفه وألقاه في قوة، اخترق السيف الهواء بسرعة عالية، وانغرس في صدر "سيد النار" ونفذ من ظهره ليقع على الأرض وهو يتلوى من الألم، ثم بدأ يذوب متحولًا إلى نار سائلة، نفث فيها التنين الرمادي الثلج فانطفأت تمامًا.

بموت سيد النار خبت عين النار فلم يظهر لسانها عاليًا كما كان يحدث، ثم نظر "خالد" إلى التنين ففهم وطار بعيدًا حتى وصل إلى عين النار نفسها، نفث الثلج بداخل النار حتى انطفأت العين نفسها.. ثم حدث أمر عجيب، لقد زال الضباب وأشرقت الأرض بالنور، وارتفعت الشمس عالية في كبد السماء، ثم عاد التنين إلى يد "خالد" يأخذ شكل العصى مرة أخرى.

انحنى "خالد" على الأرض والتقط سيفه وهو يلهث من فرط الحماس، لكن ذلك لم يمنعه من أن يشرح للناس ما حدث، وما قرأه في كتاب الحكمة الذي فيه حُكَم كل شيء، يخبرهم عن الجان والشيطان، ثم علا صوته قائلًا: "لا تسجدوا للتماثيل، ولا تعبدوا الجن، ولا الشيطان، ولكن اعبدوا الإله الخالق الواحد".

علا صوته مرة أخرى وقال: "تعبد الإله الخالق وحده".

ارتفع صوتهم يرج الجبل وهم يرددون خلفه: "تعبد الإله الخالق وحده".

ابتسم "خالد" وهو يتطلع إليهم، ثم صك صوت جده أذنه وهو يقول: "أمك يا "خالد"، ما زالت بين يدي عمالقة الجان".

****

قفز "خالد" يعتلي صهوة الجواد، ثم طلب منه أن يأخذه إلى حيث توجد أمه، ولكن هذه المرة لن تكون في حلم.. طار الجواد بعيدًا بسرعة كبيرة، أخذت السرعة تزداد وتزداد، ثم دوت فرقعة عالية.. وجد "خالد" نفسه فجأة أمام نفس النافذة، قفز عبرها إلى حيث ترك أمه بالداخل وبجوارها جثة العملاقة، وقف يتطلع إلى المشهد الذي اختلف في هذه المرة، لقد كان هناك عدد من المخلوقات الشبيه بالبشر، يرتدون ملابس الجند ويحيطون بأمه، وأحدهم يقول في حدة: "استسلم الآن، وإلا قتلناها على الفور"، ومد يده الممسكة بسيف كبير ووضعه نصله على عنقها.

قال "خالد" بسرعة: "أستسلم ولكن بشرط واحد"، نظر إلى أمه نظرة عطف وهو يكمل: "أن تطلقوا سراحها وتعيدوها إلى مكانها على الفور"، سمع نفس الصوت يقول باقتضاب: "اتفقنا".

ألقى بسيفه على الأرض، ورفع يده خلف رأسه واستسلم لهم، كان كل همه أن يتركوا أمه؛ لذلك لم يلقِ لهم بالًا وهم يقيدون يديه خلف ظهره، ولا وهم يسوقونه إلى الأسفل حيث كانت تنتظرهم عربة تجرها ثلاثة من الجياد.. كان يصعد إلى العربة عندما سمع أحد الجالسين بالداخل يتهامس مع آخر قائلًا: "لقد جاءتنا الأوامر،

سوف نأخذه إلى السجن حيث تلتقي الأرض بالسماء".. لم يفهم معنى الكلام ولم يهتم.

الجزء الثاني

كتاب البشارة

أين العدل وظلم يقهر نفسي بين السماء والأرض أسري

الفصل الخامس عشر

عَبَر المكان والزمان فجأة ليجد نفسه واقفًا وسط بهو فسيح يحيط به ضباب خفيف من كل جانب، تقد بضع خطوات صوب النافذة الوحيدة وتطلع إلى الخارج، تبين له أنه يقف في دور علوي من مبنى محاط بحديقة كبيرة، بها أشجار مورقة بألوان عجيبة، تلفت حوله يتأمل الأشياء التي يراها لأول مرة في حياته، ثم انتبه إلى شيء براق يحمله في يده، رفعه أمام وجهه، سيف قصير عريض عليه كتابات ونقوش بلغة غريبة، يقطر من طرفه سائل أحمر يشبه الدماء.. تطلع إلى الأرضية الزرقاء اللامعة، فوجده ينتشر عليها بغزارة، كما رآه متناثرًا على الجدران المكسوة بصخور بيضاء مصقولة.

عاد بوجهه يتطلع إلى الدماء على الأرض فاصطدم بصره بجسد ضخم مقطوع الرأس، ملقى تحت قدميه، ينقصه اليد اليمنى، تلفت يمينًا ويسارًا يبحث عن الرأس، رأى يد الجثة تقبض بأصابعها على مقبض سيف كبير يتناسب مع ضخامة جسدها، وأخيرًا وجد الرأس يقبع وحيدًا في ركن من البهو، اقترب منه، رأس بوجه خالٍ.. ثم انتبه إلى صوت نحيب امرأة، التفت يبحث عن مصدره، رأى امرأة جالسة على الأرض في الركن المقابل، تدفن وجهها بين يديها وتبكي بشدة.. همَّ بالتحرك متجهًا إليها، لكنه لم يفعل؛ لقد توقف فجأة عندما سمع صوتًا حادًا يقول في صرامة: "استسلم.. استسلم الآن وإلا قتلناها أمام عينيك".

في هذه اللحظة، أبعدت المرأة يديها عن وجهها وهي تنظر إليهم في خوف، ثم تطلعت إلى "خالد"، ومع بكائها ونحيبها خرج صوتها ضعيف وهي تقول: "لا تستمع إليهم يا بني، اهرب بسرعة، اهرب قبل أن يقبضوا عليك".

التفت "خالد" إلى أمه يتطلع إلى عينيها التي تفيض بالدمع ووجهها الذي يعلوه الخوف، لم يبد أنه يبالي بما سمعه من تهديدات وهو يبتسم إليها ابتسامة حانية، وفي ثقة لا تتناسب مع الموقف ألقى سيفه أرضًا، ورفع يديه عاليًا، استسلم لهم ولم يعترض على ما يفعلونه، كبَّلوا يديه بالحبال، ثم اقتادوه إلى أسفل.

أدخلوه بقسوة ليجلس مكبل اليدين داخل عربة تجرها ثلاثة من الجياد، يجلس سائقها على سطحها من الخارج، والعربة من الداخل تتسع لستة ركاب، جلس "خالد" بين الجنود الخمسة، وقبل أن تنطلق العربة سمع أمه وهي تطل من النافذة وتقول بصوت يكاد يمطر دموعًا من شدة الحزن: "عدني يا "خالد"، عدني أنك سوف تعود إلى مرة أخرى.. عدني يا بني، أنك سوف تعود أفضل مما كنت".

لكن العربة كانت قد انطلقت بالفعل، فلم يسمع "خالد" الجزء الأخير من كلام أمه، كما لم تسمع هي صوته وهو يقول في قوة وحزم: "أعدك، يا أمي، أني سوف أعود إليك".

****

استيقظ على صوت ضحكة ساخرة أطلقها أحد الجنود الخمسة، يجلس قبالته في العربة وينظر إليه في سخرية، تطلع إليه "خالد" بعينين ناعستين، قال النفس

الجندي بصوت ساخر: "عجبًا لأمرك، كيف استطعت النوم؟"، رمقه "خالد" بنظره تفيض بالتحدِّي ولم يجبه، ثم شرد بذهنه بعيدًا محاولًا استعادة الأحداث في رأسه مرة أخرى، بداية بحلمه الذي رأى فيه المرأة العملاقة تحمل أمه عاليًا بيد واحدة، ثم قتاله معها حتى فصل رأسها عن جسدها، وصراعه مع سيد النار، ثم عودته في اليقظة إلى نفس المكان ليحرر أمه، لكن عندما وصل إليها وجد الجنود يحيطون بها.

مرت الدقائق ببطء داخل العربة، الصمت يغلف كل شيء إلا من صوت حوافر الجياد وهي تدب الأرض في الخارج، إلى أن قطع هو الصمت قائلًا بصوت ساخر: "سوف نذهب إلى القضاء، أليس كذلك؟ هم يملكون قضاة ونظام للعدل!".

تطلع الجميع إليه بهشة وهو يكمل كلامه الساخر: "لا بدَّ لهم من معرفة الحقيقة قبل الحكم علي".

صمت لحظات قبل أن يضيف فجأة وبصوت جاد مليء بالتحدي: "أم أنهم يعرفونها بالفعل؟".

وهنا نظر إليه أحدهم في تشفٍّ، ثم قال ببرود:

– سوف تذهب إلى السجن مباشرة.

عرفه "خالد" من صوته، نفس الجندي الذي طلب منه أن يسلم نفسه من البداية، فرد بنفس الطريقة الساخرة:

– كيف أذهب إلى السجن مباشرة من دون محاكمة؟ أين عدل الأسياد؟

كان يماطلهم حتى يحرر يديه، استطاع بطريقة ما أن يفك قيدهما، ثم نهض من مكانه فجأة محاولًا مباغتتهم والقفز من العربة.. كاد أن ينجح، لقد فتح باب العربة بالفعل، إلا أن الجندي الذي يجلس عن يساره تمسك به في قوة، أعانه زملائه على جذبه إلى الداخل، ثم أخضعوه وأجلسوه بقسوة في مكانه مرة أخرى.

قرب واحد من الجالسين أمامه وجهه منه قائلًا في صرامة: "اجلس في مكانك دون حراك، ولا أريد أن أسمع صوت أنفاسك حتى نصل"، ثم علا صوته وهو يكمل في حزم واضح: "أسمعت؟.. أجب؛ أسمعت؟".

نظر إليه "خالد" نظرة خاوية طويلة ولم يجب، كان يحاول أن يستجمع أفكاره لعله يجد إجابة للسؤال الذي يلح على عقله: "كيف بدأ هذا كله؟ بل كيف أصبح في هذا الوضع بعد كل الذي مر به؟".. لم يبدُ على الجندي أي اهتمام بما قد يفكر فيه "خالد"، ولم يتفوه بأي كلمة أخرى، فكل ما يهمه أن يصمت، وقد كان.

انتبه "خالد" للطريق، فعقد حاجبيه وهو يتطلع عبر النافذة إلى ذلك الجزء الممتد أمامه؛ لقد بدا خطيرًا للغاية، حيث يلتف حلزونيًّا حول نفسه صعودًا إلى قمة جبل عال، كلما صعدوا كلما ضاق الطريق، حتى شعر أن العربة ستخرج عن الحافة عاجلًا أو آجلًا، لكن بمرور الوقت تلاشى قلقه، إذ بدا أن الجياد تعرف طريقها جيدا.

غربت الشمس وما زالت العربة تصعد في طريقها، فشعر "خالد" أنه في سجن حراسه من الجند وجوه الصمت وجدرانه الظلام.. لا يعلم أي شيء عن السجن الحقيقي الذي ينتظره، ولا يعرف حتى مكانه، مما جعله يشعر بضيق الصدر، أراد أن يصرخ أو يقول أي شيء، لكن عندما رفع رأسه اصطدمت عيناه بنظرة قاسية من الجندي الجالس أمامه، مما أصابه بالإحباط فلم يقوَ صوته على مغادرة فمه، فأغلق عينيه كما أغلقه.

ثم هجم على رأسه نفس السؤال مرة أخرى، لكن بقوة هذه المرة، فظل يطرق عقله في إلحاح؛ لتفتح له الذكريات وتعرض مخيلته مشاهد مما حدث، لعله يجد الإجابة التي تهدأ حاله: "كيف بدأ هذا كله؟ وما سبيل الخلاص من هذا الوضع؟"، وبينما هو غارق في بحر أفكاره كانت العربة تدور في جزء مقوس من الطريق، ثم ظهر السجن فجأة أمامهم.

الفصل السادس عشر

شعر بدهشة عارمة منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصره عليه، لقد كان يلامس السماء بالفعل، غاصت أسوار السجن داخل السحاب نفسه حتى كاد السجن أن يختفى عن الأعين تمامًا.

ترجل من العربة وسط الجند، وساروا في اتجاه البوابة، ثم انتبه إلى أن رأسه وصدره يغوصان داخل السحاب؛ مما جعل الرؤية ضبابية أمامه، عبر البوابة المفتوحة، بمجرد أن اصبح داخل السجن أغلقها الحراس خلفه.

وقف مكانه يتطلع في حيرة إلى الضباب الذي يحيط به، حاول جاهدًا أن يرى ما حوله، ثم بدأت عيناه تتكيف رويدًا، ظهر أمامه المبنى الوحيد القائم داخل الأسوار، مبنى طويل أقرب للبرج يختفي كله تقريبًا داخل السحاب، وقد بُني على حافة الجبل تمامًا، ومن أمامه فناء السجن، عبارة عن أرض واسعة، تعج بالكثيرين، ثم بدأ يرى بعض التفاصيل، ميز لونين من الملابس، خمن أن أحدهما للمساجين والآخر للحراس.. شغله أمر السحاب الذي يغوص فيه رأسه والجو الضبابى من حوله عن صدمة السجن، ثم بدأ يتلفت حوله في تركيز أكثر محاولًا رؤية التفاصيل بصورة أوضح.

رفع رأسه ينظر إلى قمة البرج، رأى شيء في السماء أشبه بحجاب من الثلج الأبيض الشفاف، يغطي مشهد السماء كلها فوق البرج، كان من الشفافية لدرجة أنه استطاع أن يلمح كتل وهَّاجة تتحرك خلفه بسرعة عالية.

لم يتذكر بالتفصيل كيف سُجِّل دخوله إلى السجن، ولا كيف تسلم ملابسه، أو كيف ولماذا اختار تلك الغرفة بالذات، والتي تقع في الدور الأرضي من البرج، ما شغل باله أكثر هو أن جو الغرفة من فوق صدره كان يسبح داخل السحاب.. لاحظ وهو يبدل ملابسه بملابس السجن أن الجدران كلها مبنيه من الأحجار الكبيرة القديمة، كما لاحظ وجود بعض الفتحات غير النافذة في الجدران، خمن أن المساجين يضعون فيها أشيائهم.

بعد أن استبدل ملابسه، بدأ يتفقد المكان من حوله، رأى نافذة كبيرة أعلى الجدار المقابل للباب، تساءل بينه وبين نفسه في دهشة: "كيف يتركون نافذة مفتوحة داخل الزنزانة؟ من السهل على المساجين الهرب منها"، نفض الأمر عن رأسه وهو يتطلع إلى أرضية الزنزانة الصخرية، يوجد عليها فراش صغير ولا شيء آخر معه.

جلس على الفراش، فهبطت رأسه أسفل السحاب؛ مما جعله يتبين وجود بابٍ آخر داخلي، غلبه الفضول فتقدم صوبه ليستكشف ما بداخله.. مد يده ليفتحه، لكن قلبه كاد أن يتوقف؛ لقد فُتح الباب من الاتجاه الآخر فجأة، وخرج منه شخصان غريبا الشكل.

تراجع جسده بصورة لا إرادية وهو ينظر إليهما في توتر وحذر، أحدهما طويل نحيف بصورة مبالغ فيها، يبدو على وجهه الشر، بأنفه المدبب الطويل، وعيناه الجاحظتان كأنهما على وشك الخروج من وجهه، وشعره الطويل الأشعث، أما الآخر فكان على النقيض منه تمامًا، فهو قصير ممتلئ الجسد، له وجه طفولي.. اقترب منه الطويل في بطء وتبعه القصير كظله، ثم انحني على أذن "خالد" وهمس: "لقد سمعت أنك لن تبقى في السجن، بل ستغادر سريعًا ".

تأمَّله "خالد" مندهشًا، ليس بسبب شكله أو ما أخبره به، أو كيف نما ذلك إلى علمه، ولكن بسبب صوته الذي يشبه النقر على الجدران لكن بطريقة أكثر حدة وسرعة، كما لاحظ أن القصير يحاكي الآخر في كل حركة وسكنة، وكأن أحدهما يكمل الآخر، أو كأنهما شخص واحد في جسدين.

صرخ عقله محذرًا إياه مما يقول ذلك الطويل، فرد عليه "خالد" قائلًا: "هذا كلام غير صحيح، فعلى الأرجح أني سأبقى معكم هنا بعض الوقت"، وقبل أن يتكلم الطويل مرة أخرى، ظهر الجواد الأبيض فجأة يرفرف بجناحيه خارج النافذة العالية.

فرح "خالد" لرؤيته فرحة غامرة، ثم صهل الجواد بصوت عال عرف معه "خالد" ما عليه فعله، جرى مسرعًا نحو الحائط وتسلق جزءً منه مستعينًا بالنتوءات الواسعة المنتشرة بين أحجاره القديمة، ثم قفز خارج النافذة الكبيرة بلا تردد.

بدا للاثنين أنه هالكٌ لا محالة؛ لذلك فقد أصابتهما الدهشة قبل أن يبتسما عندما دخل الجواد وهو يحمل "خالد" مجال الرؤية من خلال النافذة، ثم طار به

بعيدًا، و"خالد" يشعر بالسعادة وهو يمتطي صهوة جواده مرة أخرى، حانت منه نظرة إلى الأسفل فهم منها لماذا تركوا النافذة مفتوحة، لقد كانت النافذة تطل على الجزء الخلفي شبه القائم من الجبل حيث لا ترى الأرض من شدة ارتفاع الجبل، فقط ضباب مخيف.

****

طار الجواد بسرعة عالية، لم يتبين معها "خالد" تفاصيل الأشياء من حوله، من الواضح أنه قد اعتاد على الأمر، فقد أغمض عينيه واستسلم له، وهو على يقين من أن الجواد يعرف وجهته حق المعرفة.

ثم بدأ الهبوط بنفس السرعة التي يظن معها الناظر إليه أنه سيصطدم مع راكبه بالأرض لا محالة، لكنه هبط بسلام، فقفز "خالد" من على ظهره، وبمجرد أن لامس الأرض، غاصت قدماه فيها، نظر إلى أسفل فانتبه إلى أن الجواد قد هبط به فوق أرض تتكوَّن من حبات ثلج صغيرة، تلفت حوله فرأى الثلج يغطي الأفق كله إلا من كوخ خشبي يبدو عليه القِدَم.

تحرك في بطء؛ وقدمه تغوص في الثلج مع كل خطوة يخطوها، بصعوبة بالغة استطاع الوصل إلى الكوخ، ثم صعد ثلاث درجات انتهت بباب خشبي صغير، فتحه بلا تردد، قفز قلبه فرحًا؛ لقد رأى مجلس على أرضيته يتكون من الشيخ المنير الذي يجلس في الصدارة وأمامه يجلس سبعة من قصار القامة، هم أنفسهم من رآهم في

حلمه من قبل، أشار له الشيخ أن يُقبل وهو يبتسم الابتسامة الصافية التي تبث الرّاحة في القلب، تقدم داخل الكوخ، ثم دعاه الشيخ إلى الجلوس معهم.

جلس على الأرض في نفس المكان حيث أشار له الشيخ في قبالته تمامًا، تطلع الشيخ إليهم ثم قال: "من حكمة الخالق في خلقه أن لكل شيء ظاهرٍ باطنًا يختفي داخله ويستتر به حتى لا يسهل إدراكه بمجرد النظر إليه، ولكن بالاجتهاد والتفكير والفهم والبحث خلف الحكمة من وجود هذا الشيء، ولكل شيء باطن ظاهرًا يدل عليه كمنهج ودليل وطريق يسير فيها الراغب إلى الوصول للغاية والحقيقة".

دون أن يشعر، وجد "خالد" عينيه ترغرغ بالدموع حتى لمعت بها.

فتوقف الشيخ عن القراءة متطلعًا إلى عينيه التي ملأتها الدموع، وقال بصوته الهادئ العميق: "ماذا بك؟"، لم يجد "خالد" ما يقوله فاكتفى بالصمت.. قام الشيخ واقترب منه ثم وضع يدًا على قلبه والأخرى على رأسه كما فعل من قبل حين ألقى في قلبه المعرفة بلغة الجن، حرك الشيخ شفتيه بكلمات سمعها "خالد" في عقله بلا صوت، سكن بعدها واطمئن.. ثم أغمض عينيه وغادر عقله جسده هكذا بلا مقدمات، لينتقل بعقله ووعيه إلى مكان آخر وجد فيه نفسه يقف في ظلام دامس، لا يرى فيه شيئًا حتى يديه، وبينما هو تائه في تلك الظلمة فتحت طاقة فوق رأسه تسلل عبرها شعاع من النور غمره من كل صوب، ثم بدأ يهبط وسط شعاع النور شيء ما في هدوء عجيب، واقترب منه حتى توقف أمام وجهه، ثم وضحت ماهيته،

لقد كان كتابًا كبيرًا، مد إليه يده والتقطه، ثم قرأ عنوان الكتاب بصوت عالٍ: "كتاب البشارة.. فيه هدى ونور".. عندما فتح عينيه وجد نفسه يجلس بين يدي الشيخ.

سأله الشيخ في هدوء: "ماذا رأيت؟"، روى له "خالد" ما رآه بالتفصيل فزينت وجه الشيخ ابتسامته الصافية التي زادته نورًا على نوره، ثم قال: "هي بشرة خير، النور يهدي التائه حين تشتد الظلمة، والهدى يكشف له ملامح الطريق حين يصل إلى المفترق ليختار الأصلح من بينهم".

اعتلى ظهر جواده، ثم مال على أذنه هامسا: "اذهب بي إلى حيث أجد كتاب البشارة".

الفصل السابع عشر

انطلق الجواد يضرب الهواء بجناحيه، واستمر في الطيران قاطعًا مسافات طويلة، ثم هبط أخيرًا في مكان فسيح، يطل على بحر هادئ يخلب منظره الألباب، وعلى شاطئه رمال بيضاء ناعمة، سماؤه صافية، هواؤه منعش يبعث على السرور بمجرد استنشاقه.. وقف على الشاطئ لحظات يتأمل البحر، ثم جلس على الرمل في هدوء، تسربت السكينة إلى نفسه فقال: "يا له من مكان جميل! أتمنى لو أحيا هنا إلى الأبد"، صهل الجواد بقوة، فتذكر "خالد" الهدف من مجيئه وقفز واقفًا، ثم قال: "الكتاب! ولكن أين أجده؟".

ثم التفت إلى الجواد وهو يكمل كلامه ويقول: "لماذا أتيت بي إلى هنا يا صديقي؟"، صهل الجواد مرة أخرى وهو يومئ برأسه تجاه البحر، الفت "خالد" يتطلع إلى البحر، فرأى قاربًا صغيرًا على شكل حرف نون، يحمل شيئًا ما ويتجه به صوب الشاطئ إلى حيث يقف هو، وما أن لامس القارب الرمال، حتى تبين لـ"خالد" ما يحمله، إنه كتاب، التقطه بشغف، ولم يلقِ بالًا إلى القارب الذي عاد من تلقاء نفسه يسبح في البحر مبتعدا حتى اختفى عن النظر.

جلس على الأرض، وجلس بجانبه الجواد، ثم فتح الكتاب، لكنه لم يجد شيئًا مكتوبًا، لا كلمات ولا حروف، غمغم في نفسه: "شيخ النور ليس موجودًا ليظهر لي الكلام كما فعل من قبل مع كتاب الحكمة".

لم يدر ماذا يفعل، لكن الجواد صهل من جديد، فتكرر الأمر مثلما حدث من قبل مع كتاب الحكمة، فُتِح الكتاب من تلقاء نفسه، ثم تبدأ الحروف والكلمات في الظهور، وبدأ يقرأ منه بصوت هادئ: "إن الإنسان يتكون من روح وجسد، من ظاهر وباطن وبينهما النفس، ولكي تتحرر النفس يجب تحرير الجزء الخاص بالباطن والروح، تماما كما يجب تحرير الجزء الخاص بالظاهر والجسد.. والروح تتكون من خمسة أجزاء..

روح مسبِّح: تسبح بحمد الخالق طول الوقت، وهي النفخة الطاهرة..

روح مدبِّر: تضمن عمل أجهزة الجسم في المنام واليقظة من دون تدخل الإنسان..

روح عقليّ: تعطي ذات الإنسان وجوهره الحياة فتؤثر في القلب لتتكون النفس..

روح حيواني: تعطي الحواسَ الخمس الماديةَ الإحساس..

روح الخيال: تجعل الإنسان ينظر إلى ما وراء الظاهر؛ ليكتشف ذاته ويرى مطلق الصواب والخطأ، فتراجع العقل في ما يبثه من أفكار، وهي ما تحيي البصيرة أوعين القلب، التي ترى من ملكوت الخالق ما ترى، ويكتمل بالمخيلة في المخ، والتي تترجم ما تراه البصيرة إلى تصور، يترجمه المخ إلى صور وكلمات".

ثم اختفت الكلمات مرة أخرى وأُغلق الكتاب، بدت الحيرة على وجهه وهو يقول في انزعاج: "ولكن كيف؟ ماذا عليَّ أن أفعل بهذه الكلمات التي لم أفقه منها شيئًا؟ لقد أبطلتُ سحر سيد النار، بل أطفأت عين النار نفسها، لكن الكتاب يقول إنه يجب أن تحرر جزء النفس الخاص بالروح والباطن.. كيف أبطل عمل السحر كله وأنهي هذا الاستعباد؟".

بعد أن أنهى تساؤله، فُتح الكتاب من تلقاء نفسه مرة أخرى، كأنه يُفتح فقط ليجيب على أسئلته، لكن في هذه المرة خرج منه نورٌ سكن صدر "خالد" مباشرة، شعر معه بالسكينة والنور يغمره، بدا له أنه يرى المعاني متجسدة في خياله، وعقله يحاول جاهدًا أن يترجم ما يرى الخيال إلى كلمات وصور.

صهل الجواد فجأة فأخرجه من هذه الحالة وهو يشير إليه برأسه لينظر خلفه، التفت "خالد" فرأى بابًا ظهر من العدم يُفتح أمامه، فعاد بوجهه ينظر إلى الجواد وسأله: "أيجب عليَّ أن أدخل من هذا الباب؟"، أومأ الجواد برأسه، فقام على الفور وعبَر الباب ثم التفت يمينه.

****

كان "خالد" مستعدا لأن يرى أي شيء إلا ذلك الذي رآه؛ لقد فوجئ ببوابة السجن الرئيسية على بعد خطوات منه، كاد أن يعود أدراجه إلى حيث البحر والسماء الصافية مرة أخرى، وفعلًا خطا خطوة إلى الخلف، لكنه لم يجد الباب أو المكان الذي جاء منه، لقد اختفى كل شيء حتى الجواد.

راودته فكرة أن يلتفت يسارًا ويعدو بكل قوته علَّه يهرب مرة أخرى، لكنه عدل عنها، فمع صعوبتها، ومع الشعور بالهدوء الذي يغمر نفسه توجه مباشرة صوب باب السجن الرئيسي، بإرادته.

تقدم في هدوء وثقة، ففتح الحراس البوابة وهم ينظرون إليه نظرة عجيبة، ثم اصطفوا على الجانبين، عبر منها إلى ساحة السجن وسط نظرات الحراس التي بدت له واضحة هذه المرة برغم الضباب الذي يغلف الرؤية من حوله، كانوا ينظرون إليه في شفقة حتى بدا له أنهم على وشك أن يسألوه: "لماذا عدت، أيها الغبي؟ فأنت أول من يستطيع الهرب من هنا".

الفصل الثامن عشر

بمجرد أن عبر البوابة أُغلِقت خلفه، سار إلى الفناء، ومع قدرته على رؤية تفاصيل أكثر هذه المرة، استطاع ملاحظة المساجين، إنهم مع كثرة عددهم فإنهم يتحركون في مجموعات منفصلة، كل مجموعة مشغولة بما تفعله، لكنهم بمجرد وصوله تركوا ما يشغلهم ووقفوا جميعًا يتطلعون في هدوء إليه وهو يكمل خطواته صوب برج السجن.

سمع "خالد" أحدهم ينادي عليه، ثم تكرر الأمر ونادى عليه شخص آخر وآخر، وتعجب؛ فكيف يعرفون اسمه؟ إذ يبدو له أنه لا يميِّز أيًّا منهم، عبر الفناء واقترب من البرج حيث توجد غُرَف الحبس، وكما حدث في المرة السابقة تركوه يختار محبسه بنفسه، فتوجه إلى الغرفة نفسها ودلف إليها.

استقبله الطويل بنظرته الحادة وهو يسأله مستنكرًا:

- لماذا عدت؟

- لا أعلم، أنا فقط فعلت.

صمت الطويل وضاقت عيناه وهو يتفحص "خالد" بنظره، ثم ما لبث أن لانت ملامح وجهه وهو يقول:

– أنت شجاع بالفعل أيها الإنسي، لأن تعود بقدميك إلى السجن مرة أخرى وتختار الزنزانة نفسها معي، هي شجاعة ولا ريب.

– وما الشجاعة في ذلك؟!

نظر إلى "خالد" وضاقت عيناه مرة أخرى، في محاولة منه أن يسبر أغواره لعله يقرأ ما يدور في عقله، وبعد لحظات قال:

– ألا ترى مظهري؟

اسرع "خالد" يرد عليه:

– لقد تعودت أن أحكم على الأفعال وليس على الأشكال أو الأصوات.

ابتسم، ثم مد يده إليه قائلًا:

– اسمي "عتيق".

ثم التفت إلى القصير وهو يُكمل:

– وهو "عتيق".. كلانا "عتيق".

– وأنا "خالد".

فوجئ "خالد" بأحدهم يخرج من الباب الداخلي للزنزانة، متوسط الطول، جسده ممتلئ قليلًا، وله شارب ولحية سوداوان، يبتسم في ود باد، وقف في منتصف الغرفة ثم قال بصوت يشبه الزقزقة:

– وأنا "راضي".

تفاجأ به "خالد"، إلَّا أن ذلك لم يمنعه من أن يمد يده إليه قائلًا:

– مرحبًا بك، مد "راضي" يده إليه وهو يتفرس في ملامحه دون أن يجيبه.. لاحظ "خالد" بعدها أن "عتيق" يتحاشى النظر مباشرة إليه، فتوجه إليه وسأله:

– ماذا بك يا "عتيق"؟

تكلم "عتيق" بصوت غلب عليه التأثر وقال:

– أنت أول إنسي لم يخِفه شكلي أو تكويني ذو النصفين، كما أنك تتحدث إليَّ في ود.

قاطعه "خالد" قائلًا:

– ها أنت تكررها للمرة الثانية، ماذا تعني بأول إنسي؟ من أنت حقًا:

– أنا من الجن.

شعر خالد بالدهشة التي ظهر أثرها في صوته عندما قال:

– من الجن! ولماذا سجنوك وأنت واحد منهم؟

– عندما رفضت أوامرهم قاموا بسجني، لقد رفضت أن أستمر في أذية البشر.

– ما أعرفه هو أن الجن وبمساعدة الشيطان هم من آذوا الإنسان.

هنا تكلم راضي بسرعة وبصوته الذي يشبه الزقزقة:

– لسنا جميعا مؤذين.

فهم "خالد" أن "راضي" هو الآخر من الجن، كما لاحظ عليه التوتر؛ يحك باطن يديه بعضهما ببعض باستمرار، ويتكلم بسرعة واندفاع، ثم أضاف:

– ما زال يوجد فينا الخير، كما الشر، فينا المؤمن والكافر، العالم والجاهل، نحن أشكال وألوان وطرق وعشائر وقبائل، أنا تعلمت على أيدي علماء، وبالمناسبة أنا أعرف جدك يا "خالد"، قد تبادلنا العلم من قبل، حتى أننا تعلمنا عن الكتب معًا، كتاب الحكمة، وكتاب البشارة، شرح لنا الصوت الكثير منهما.

احدث "راضي" بسرعة واندفاع، لم يملك "خالد" معهما إلا أن يستمع إليه، ويحاول متابعته، لكنه لم يحتمل حين أتى على ذكر جده والكتابين، فأشار إليه بيده أن يتوقف وهو يسأله بسرعة قبل أن يعود ويتكلم:

– كيف تعرف جدي؟ ومتى قابلته؟ وما الصوت؟

– إن أبي هو من أنقذ جدك من الطوفان، وكان يعلمنا معًا ونحن صغيران.. علمنا كيف نصلي للإله الخالق، ولا نسجد لغيره، وعندما نتعبد بالصلاة أو الدعاء يأتي الصوت، فيخبرنا ويعلمنا، حتى صار يأتينا عندما نحتاجه أو نناديه، وقد علمنا عن الكتابين الكثير، كما أخبرنا بوجود كتاب ثالث، سوف يأتي زمانه.

وهنا نظر "عتيق" إلى "خالد" وسأله:

– هل تريد أن تقابل الصوت؟

فأجاب "خالد" على الفور:

– نعم.

ابتسم له "عتيق" ابتسامة غامضة، وقبل أن يضيف شيئا انطلق الصوت الذي يعلن عن ميعاد النوم، فذهب "خالد" إلى فراشه لينام، لكنه فوجئ بـ"عتيق" يقترب منه ويهمس:

– دعنا نذهب ونتحدث معه.

ثم أضاف:

– "خالد"، قبل أن نذهب أريدك أن تستمع إلى كل كلامه، وتنفذه بالحرف الواحد.

أومأ "خالد" برأسه، وإن لم يستطع منع نفسه فسأل في حيرة:

- من هو؟

- الصوت طبعا.

هم "خالد" أن يسأله سؤالًا آخر، لكن "عتيق" أكمل في سرعة:

- انتظر حتى تقابله، هيا لنذهب جميعًا الآن.

****

ظهر "راضي" في هذه اللحظة من خلف "عتيق"، ثم تحركا صوب النافذة، و"خالد" يتبعهما، خرج كلا "عتيق"، ثم "راضي" من النافذة الكبيرة وتسلقا الجدران، لكن "خالد" تسمر في مكانه دون حراك.. بعد مرور لحظات عاد إليه "عتيق" وأطل برأسه من النافذة، وهو يتعلق بيده الممسكة بالجدار من الخارج، ويقول:

- لماذا لم تتبعنا؟ هيا ولا تخف.

تبعهم "خالد"، خرج من النافذة، وأمسك بالنتوءات والفُتحات كما يفعل رفيقاه، وتسلق الجدار خلفهما.. في البداية، كان يشعر بالخوف حتى أنه كاد أن يتعثر ويسقط أكثر من مرة، ولكنه وجد نفسه مع الوقت يتقن الصعود حتى أنه قد سبقهما في مرحلة ما دون أن يشعر، ثم وصل إلى إحدى النوافذ العالية، فسمع صوت عتيق يأتي من الأسفل يخبره أن يقفز إلى الداخل، قفز وتسمر في مكانه؛ لم يجد أحدًا بالداخل، فانتظر حتى تبعه رفيقاه إلى الداخل، التفت إليهما قائلًا في حيرة:

- إن المحبس خال.

ابتسم "عتيق" وهو يقول بغموض:

- لقد أخبرتك أنك ستتحدث إليه ولم أقل أبدًا بأنك ستراه، فهو صوت.

أسرع "راضي" يقول:

- نحتاجك، أيها الصوت.

سمع "خالد" صوتًا هادئًا رصينًا يشبه صوت جده كثيرًا وهو يقول دون أن يرى صاحبه:

- من أنت؟

بدت على "راضي" الدهشة عندما قال:

- أنت تعرفني بالفعل.

- لا أسألكما ولكني أسأل صاحبكما.

نظر "عتيق" و"راضي" إلى "خالد" يحثانه على الكلام، فتنحنح وقال:

- اسمي "خالد".

- لم أسأل عن اسمك، ولكن سألت عمن تكون.

لم يفهم "خالد" الهدف من السؤال، أو الفرق، فسكت ولم يجِب، فقال الصوت:

- أخبرني عن حكايتك، يا "خالد".

انتهى "خالد" من رواية قصته، فسمع الصوت يقول:

- دعني أسألك بعض الأسئلة.. إذا أذنت لي بالطبع.

تكلم "خالد" على الفور وقد شعر معه بالألفة، وذلك الصوت يشبه صوت جده كثيرا:

- تفضل.

- هل ما كنت تراه حين تنام أحلامًا أم شيئًا آخر؟

- لا أعرف ولكني كنت أستيقظ منها، وما زلت أحس كل الأحاسيس نفسها التي كانت في الحلم، وأشعر بالتعب كأني بذلت مجهودًا حقيقيًّا.

- هل كان نومك من الأساس نومًا؟

احتار "خالد" ولم يُجِب على الفور، فقال الصوت:

- دعنا من هذا السؤال الآن.

ثم استطرد وقال:

– كم من الوقت تظن أنه مر منذ أن قبضوا عليك حتى هربت ثم عدت؟

– لا أدري على وجه الدقة، ربما أكثر من يوم بقليل.

– وهل نمت فيهم؟

– نعم، حين عدت إلى السجن ذهبت إلى الفراش في موعد النوم، مهلًا.

قالها وهو يفكر بعمق هذه المرة قبل أن يقول:

– لقد ذهبت إلى الفراش ولكني لم أنم، بل كان يشبه انتقالًا للوعي، ثم تسلقت الجدران وتحدثت معك.

وهنا نظر "خالد" حوله فلم يرَ رفيقيه، وسمع الصوت يقول بنيرة ارتياح ورضى:

– عد إلى فراشك، إن الحراس على وشك دخول زنزانتك.

فسأله "خالد":

– ما هذه الكائنات النورانية التي تسبح خلف حجاب الثلج؟

– هي روحانيات السماء وبعض الملائكة و...

الفصل التاسع عشر

فجأة سمع "خالد" صوت ما يدوي في أذنه ويقول:

– قم، اصحَ، تعالَ معنا في الحال.

قامَ مفزوعًا، وجد عددًا من الحراس يحيطون بفراشه، فسألهم:

– إلى أين؟

– إلى العمل.

بدأ ذهنه يصفو، فتح عينيه قليلًا وسأل:

– وماذا سأعمل؟

– ستعمل مثل بقية المساجين، في تحضير الطعام للحراس.

فتح عينيه عن آخرهما، لاحظ الضيق الواضح على وجه الحارس الذي أخبره بأمر إعداد المساجين لطعام الحراس، لكنه لم يلقِ له بالًا.. ذهب إلى المطبخ، وعندما دلف إليه أطلعه أحد الحراس على دوره وعمله.

امتلأ المطبخ بالمساجين، وبالرغم من الزحام الشديد استطاع "خالد" أن يميز نصفا "عتيق" اللذين لا يفترقان أبدًا وبجوارهما يقف "راضي".. اشترك "خالد" مع

الجميع في إعداد الطعام، وعندما انتهوا منه ذهب به بعضهم ليضعه أمام الحراس المجتمعين حول طاولة كبيرة تسعهم جميعًا.. وبعد فترة حان موعد عودة المساجين إلى غرفهم، وبينما يتحرك الجميع، لاحظ أن بعضهم ينظر إليه بطريقة توحي بأنهم يعرفونه من قبل، فتذكر أولئك الذين كانوا ينادون عليه بالأمس وهو يعبر الفناء أمامهم.

الغريب حقا أنه عندما تطلع إليهم وقع في قلبه أنه قد التقى بهم من قبل، وإن كان لا يذكر أين ولا وكيف.. بعض المساجين كانوا ينظرون إليه وهم يبتسمون، بينما آخرون يرمقونه بنظرات تحمل الكراهية، فوجد نفسه يدقق في وجوه الجميع رغمًا عنه.. أدهشه أن البعض منهم بدا شاحبًا أو ربما مريضًا؛ كان منهم من يترنح يمينًا ويسارًا في أثناء سيره.

أخرجه "راضي" من تركيزه وهو يسرع الخطى نحوه، ثم يسير بجواره ويهمس له:

- هل قابلته؟

التفت إليه "خالد" في توتر ظهر واضحًا في صوته عندما قال:

- قابلت من؟

- الصوت.

عقد "خالد" جبينه قبل أن يقول:

– ولكنك كنت معي حين قابلته، وكذلك "عتيق".

– لم أكن أبدًا معك.

انعقد لسان "خالد"، وصمت تماما، إلى أن دخلا الزنزانة، فوجدا "عتيق" وقد سبقهما إليها، فقال "راضي" بسرعة:

– لقد قابل الصوت، قلت لك إنه سيفعل.

قاطعه "خالد" بصوت يموج بالحيرة:

– لكنكما كنتما معي بالفعل.

نظر "عتيق" إليه وقد ازداد جحوظ عينيه وقال:

– لم أكن معك، ربما "راضي".

– كما قلت لك سابقا، أنا لم أذهب إلى هناك.

صمت "خالد" وطال صمته قبل أن يطلق زفرة قوية وينظر إلى "راضي" وهو يسأله مستنكرًا:

– كيف يمكن ذلك؟!

– أنت قابلته بروح خيالك، قابلته في داخلك؛ في عالمك، هو أشبه بالحلم، لكنه حقيقة، وسوف تصير كالحقيقة أكثر، بمرور الوقت.

لهث "راضي" من فرط السرعة والحماس الذي يتحدث بهما، و"خالد" يتمتم بينه وبين نفسه: "هو جزء الروح الخاص بالخيال"، فجأة قفز سؤال إلى رأسه وجرى على لسانه سريعًا:

– ما عملك في عالمك، يا "راضي؟ وأنت يا "عتيق"؟

رد عليه "راضي" في سرعة وهو يقول:

– لقد تعلمت عن الطب الكثير لكني في الأساس عالم فلك.

– وأنا ساحر.

وهنا نظر "خالد" إليه في دهشة وكذلك فعل "راضي"؛ فسأله "خالد" بصوت مبحوح والكلمات تخرج من فمه ببطء:

– ما هو السحر حقا يا "عتيق"؟

– السحر: فعل يستعين فيه الساحر بنوع من علوم الشياطين؛ ليصنع أحداثًا وفق ما يريد مخلوق ما يستعين بهذا الساحر.

صمت "عتيق" لبرهة غير مصدق أنه قد نطق بهذا الكم من الكلام، ثم استطرد:

– وعلم السحر ينقسم بحسب الهدف منه في العموم إلى أربعة..

أولا: إخضاع الأسباب والسيطرة عليها وهو التسخير بالأقسام..

ثانيا: توجيه الأسباب لتقوم بأعمال معينة حسب هوى الساحر وهو الإجبار الذي تربطه العزائم..

ثالثًا: منع الأسباب من القيام بعمل ما وهو الموانع وتحكمه الطلاسم..

رابعًا: استبدال الأسباب بأسباب أخرى وهو التغيير الذي يحتاج إلى مفاتيح الأبواب ومغاليقها.

دون مقدمات وجد "خالد" نفسه يفهم ما يقوله "عتيق"، بل كان يراه في مخيلته ثم يقع مفهومه في قلبه وأخيرًا يُترجم معناه في عقله، كأنه يملك المفاهيم التي تنتظر التفسير لتعبر عنها الكلمات.

ذلك النور الذي خرج من كتاب البشارة وسكن قلبه أكسبه قدرات عجيبة بدأت تظهر عليه، فأصبح يستطيع أن يشعر بما يدور في داخل رأس الواقف أمامه، بل أصبح يرى قلبه وما يحتويه، ولهذا شعر بحزن "عتيق" فسأله:

– لماذا تبدو حزينًا هكذا؟

شعر "عتيق" بالدهشة لقدرة الإنسي على سبر أغواره وهو الجني، دهشة بدت واضحة في صوته وإن لم تمحُ الحزن الواضح فيه وهو يقول:

– لقد كنت سببًا في إلحاق الأذى والضر بالكثيرين.

ثم استطرد:

– "خالد"، لا تظن أني كنت أرفض أن أقوم بأعمال السحر هذه طول الوقت، لكن المهم أنني قد تبت الآن، وفي كل وقت أسأل الخالق أن يغفر لي ويقبل توبتي.

كلما غاص "عتيق" في الكلام عن السحر بدا على صوته الحزن أكثر وأكثر، لاحظ "خالد" تبدُّل طريقة حديث "عتيق"، ولكنه كان منشغلًا بما تغير فيه هو نفسه منذ دخل قلبه ذلك النور، كان يشعر بهذا التغيير يسري في قلبه وعقله وروحه.. أخرجه من شروده إحساس بالشفقة تجاه "عتيق"، ظهر اثره في صوته وهو يسأله:

– لماذا سُجنت؟

بدا على "عتيق" الشرود وهو يقول:

– لقد جمعوا كل من رفض أعمال الأذى والسحر وزجوا بهم في السجن.

– مَن هم الذين يتسببون في الضر والأذى، بل ويجمعون كل من يخالفهم ويضعوهم في السجن؟

نهض "عتيق" فجأة، وبرقت عيناه، ثم قال: "اسمع يا خالد".

هجم الخوف على صدره فجأة بمجرد أن اقترب منه "عتيق" بنصفيه؛ ذلك لأن أعينهما كانت تشتعل نارًا، ثم بدأ يشعر بارتفاع حرارة الجو في الزنزانة.

لكن "راضي" أدرك الموقف، وقام في سرعة وهو يقول: "اهدأ يا "عتيق"، واترك لي الإجابة هذه المرة".

بدأت حرارة الغرفة تنخفض تدريجيًّا بمجرد أن جلس "عتيق" وبدأ يلتقط أنفاسه ببطء مهدئًا نفسه، ثم أمسك "راضي" زمام الحديث.

الطمع في الخلافة أعماه، ظن أنه سيصبح في الأرض إله

الفصل العشرون

قال "راضي": "في صغري، روى لي والدي، أنه فيما مضى من السنين، اجتمع مجلس الجن العام، ومعهم مندوب الشيطان؛ لينظروا في أمر سيادة الإنسان، بعد الذي كان".

فقال كبير الجان وهو يوجه كلامه إلى مندوب الشيطان: "بسبب إبليس، فقدنا ملكنا الواسع في الأرض، وانحصر إلى الخلاء، حيث أغلقت علينا البوابات بالأقفال، جراء القوانين والأحكام الواجبة النفاذ، وإلا الحرق يكون الجزاء.. لو لم يحاربنا هو، لاستمر ملكنا على الأرض الآن، ولمنعنا سلطة هذا الإنسان وسيادته، لكن طمعه في الخلافة على الأرض أعماه فحاربنا و..."

أغضب كلامه مندوب الشيطان فعلا صوته وقال مقاطعًا إياه: "كفى!"، فألجمهم جميعًا، ثم أكمل بالصوت نفسه: "هل نسيتم، مَن يناضل ضد الإنسان طول الوقت؟ مَن يزيِّن لهم الأمور ليجرهم إلى المعاصي والضلال؟ مَن يعلمهم السحر ويأمرهم أن يستعينوا بكم؟ مَن اكتشف كيف يبطل عمل القوانين، وفتح لكم معظم البوابات؟ حتى كدتم أن تسخروا أنتم الإنسان".

استنكر كبير الجان كلامه فقال: "إنه الإنسان نفسه ومعاصيه، صفاته وأفعاله، هو مَن يفتح لنا الأبواب.. عندما يحقد على أخيه، أو يحسده ويتمنى لنفسه ما يملكه، أو عندما يمكر به ليمرضه، أو يفقره أو يقتله".

قال مندوب الشيطان بصوت حاد: "ومن الذي يوسوس له ليفعل ذلك أيها الغبي؟ مَن الذي جعل همه وشغله ليل نهار أن يضعف إيمان الإنسان؟"، ثم لهث مندوب الشيطان من فرط الحماس بعد الذي قال، قبل أن يستطرد: "المهم أن نتحد جميعًا ضد هذا المخلوق الأدنى الضعيف، لنفعل ما اجتمعنا لفعله.. فليحضر السحرة الآن".

سأل "خالد" مقاطعا سرد "راضي"، وهو يتوقع الإجابة:

– وما الذي اجتمعوا لفعله؟

لكن ما أخبره به "راضي" فاق كل توقعاته.

– لقد أوقدوا نار الظلمات، وهي نار شديدة الحمرة، ظلها شديد السواد، أقاموا لها البناء، وألقوا فيها حطبها ووقودها، حتى بدأ ظلها الأسود يتراقص في نعومة، ثم بدأ الظل ينتشر، ويغطي مساحة أكبر، وكلما ألقوا فيها العزائم والطلاسم والأسماء، زاد الظل المظلم انتشارًا، يغطي من أطعموها من الأسماء.

صُدم "خالد" مما سمع، فتطلع إلى "راضي" وسأله:

– وما الذي يحدث حين يغطي الظل الأسود أحدهم؟

– يتسلل الظلام داخل نفسه، ويظلم ما بها من نور، ثم يشطر نفْس هذا الإنسان إلى نصفين.

– يشطر نفْس الإنسان إلى نصفين؛ نصف بالنهار ونصف بالليل.

– تمامًا كما قلت يا "خالد"، ولكن كيف عرفت عن سحر شطر النفس؟

– لا يهم الآن، أكمل من فضلك ما بدأت.. ماذا بعد أن يستحوذ على النفس ويشطرها إلى نصفين؟

– ثم أوقدوا نار الهوى، وهي نار لا تراها العين، وإن كانت تنشر البرودة في القلب والروح.

– وما الهدف منها؟

– لا أعلم، لقد أخبرتك بالفعل بكل ما أعرف.

وخيم الصمت على الجميع.

****

وضع "خالد" جسده على فراش السجن في تلك الليلة، لكنه لم يستطع النوم؛ وكلام "راضي" و"عتيق" يدور في رأسه.. لقد أطفأ تلك النار ذات الظل الأسود بالفعل، لكن أين مكان النار الأخرى؟ وكيف يصل إليها ويطفئها؟ لماذا يشعر بأن عليه هو بالذات أن يفعلها؟ وكأنه دوره المنوط به أن يؤديه.. زفر في قوة قبل أن يغادر صوته عقله ويعبر فمه إلى الخارج وهو يقول: من أين أبدأ؟

وبلا مقدمات سمع الصوت يقول:

– ماذا رأيت في المطبخ حين ذهبت إله اليوم؟

ومع المفاجأة والقشعريرة التي سرت في جسده خرج صوته مرة أخرى وهو يسأل الصوت:

– أين كنت؟

فتح "خالد" عينيه فجأة ليجد "عتيق" يتطلع إليه بوجه تملأه الدهشة وقال:

– ماذا تقول يا "خالد"؟

– لا شيء.

أغمض عينيه مرة أخرى وهمس:

– أنت تتحدث معي وأنا ما زلت مستيقظًا.

أجابه الصوت بنبرة هادئة:

– نعم، يا "خالد"، المهم الآن أن تجيب سؤالي: ماذا رأيت هناك؟

وهنا انتبه "خالد" أن الصوت يتردد داخل رأسه فقط، فجرب أن يخاطبه بعقله:

– رأيت عشوائية في إعداد الطعام مع بعض الإهمال، والنتيجة طعام رديء يقزز النفس، يتم وضعه على مائدة قديمة يغطيها التراب.. منظر يكاد يفسد الشهية للطعام.

– هذا هو الظاهر.. أريدك أن تتأمل في الأعماق أكثر، ما نتيجة ذلك الطعام السيء على الحراس؟

– يشعرهم بالضيق مما يزيد من سخطهم على المساجين وتتوتر بينهم العلاقات.

تكلم الصوت بنيرة ارتياح:

– أحسنت، ولكن كيف يُعِد المساجين الطعام نفسه؟

انشغل "خالد" بالتفكير في الأمر دون أن يجيب، لقد أصابته الدهشة بالفعل؛ فهو لم يرَ نارًا توقد على طعام، ولا قدورا أو أذان.. لم يجد ما يجيب به، مما جعل الصوت يقول:

– هو طعام تجهزه النوايا، وتقوم بإعداده المشاعر والأحاسيس ويحسِّن مذاقه الذوق العام.

حمل صوته الجدية وهو يكمل:

– ابدأ بتحسين جودة الطعام، بأن تختار الحسنة نيته من المساجين ومعهم محبي الخير لغيرهم، ثم ضع في المطبخ النظام، وأحسن التقديم والعرض، يسُد بينهم الوئام.

الفصل الحادي والعشرون

في الصباح، ذهب جميع المساجين إلى المطبخ كالعادة، تقدَّمهم "خالد" واستأذنهم في الكلام، وشرح لهم وجهة النظر، وكيف يمكن تحسين العلاقات بين الحراس والمساجين، ومع هباته وقدراته الجديدة، استطاع أن يقرأ ما بداخل بعضهم، واختار منهم الحسنة نيتهم ومحبي الخير للآخرين، واقترح عليهم نوع الطعام، ونظَّم الأدوار وشرح لكل واحد منهم ما عليه فعله بالتمام.

خرج ونظف المائدة ونظمها، وجاء موعد الطعام، وأقبل الحراس يجلسون حول المائدة.. في البداية، استغرب الحراس مشهد الطاولة الجميل، ثم بدا عليهم السرور، وحين أتى الطعام وقُدِّم إليهم بنظافة ونظام استساغوه حين أكلوه، ولأول مرة في هذا السجن ساد جو من الهدوء بين المساجين والحراس.. نظر "خالد" إلى المشهد في سرور والجميع ينظر إليه في سعادة واضحة.

بلا مقدمات شعر وكأنه يعلو ويرتفع داخل السحاب، وكأنما يطير عاليًا دون جواد، ثم بدأ يرى المشهد رؤية كلية من فوق، وتخيل في رأسه كيف يمكنه أن يطور الأمر أكثر وأكثر، سيعمل على تطوير المطبخ والطعام وأسلوب العرض، كان "خالد" يشعر بنفسه وهو يطير لكنه في الحقيقة ما يزال واقفًا على الأرض، وفجأة وجد نفسه مرة أخرى في الزنزانة، والصوت يسأله من داخل رأسه:

– والآن ماذا لاحظت على المساجين؟

– ينظرون إليَّ تبدو في أعينهم اللهفة، كأنهم يعرفونني، وأكاد أجزم أني أعرف بعضهم بدوري، وإن كنت لا أعلم كيف.

صمت بعدها طويلًا، بدا عليه الحزن واضحًا، فسأله الصوت:

– أغلبك الشوق؟

– نعم، أشتاق لرؤية أمي.

– عليك أن تُخرج نفسك من السجن؛ كي تعود إليها وتراها.

بدا على صوته الحزن عندما قال:

– لكني لا أملك الأمر، فخروجي من السجن ليس بيدي.

– هو بيديك إن أردت.

– بالطبع أريد، أخبرني كيف يكون الأمر بيدي؟

– حين أطفأت نار الحمرة ذات الظلِّ الأسود حررت جزء الملك والظاهر، ولكي تحرر الملكوت والباطن، يجب عليك أن تقضي على سحر الهوى وتطفئ ناره الخفية.

– كيف؟ كيف؟

رد عليه الصوت بنبرة هادئة:

– عندما تحب من يكرهك، وتسامح من يظلِمك سيعود الاثنان واحدا، وعندما تساعد الجميع وتنقذ منهم من تستطيع سيكونون لك تبعا، وعندما تنير الظلمة وتسيطر الروح المسبحة منهم على باقي الخمسة سيعود الملكوت.

عقد "خالد" حاجبيه في تفكير عميق لم يصل به لشيء؛ فهو لم يستطيع تفسير كلام الصوت بعد.. وصمت، وطال صمته، كذلك طال صمت الصوت، فقال "خالد":

– أيها الصوت، أين أنت؟

ولم يجِبْه أحد.

****

انتفض جسد "خالد" عندما سمع أحدهم ينادي اسمه من الخارج، غادر محبسه وتوجه إلى فناء السجن، وجد ثلاثة مساجين في انتظاره، ما إن رأوه حتى تكلم أحدهم:

– اسمي "ممدوح" وهذا "عصام" وهذا "سعيد".

– وأنا..

قاطعه "عصام" وهو يقول:

– أنت "خالد" نحن نعرفك بالفعل، أنت من حسنت جودة الطعام ونظمت المائدة.

قال "ممدوح":

– أردنا أن نعرف كيف حسنت جودة الطعام، وجعلت الحراس سعداء...

قطع كلامه إثر سعال أصابه فجأة، احمرَّ له وجهه وضاق نفَسُه، ولم يستطع التوقف بعدها عن السعال، فالتفت "خالد" حوله يبحث عن "راضي"، وبمجرد أن رآه جرى نحوه وجرَّه من يده وقال: "أسرع، إنه على وشك الموت".

وقبل أن يسأله "راضي" أي سؤال وجد "ممدوح" أمامه ممددًا على الأرض يسعل في قوة دون توقف، حكَّ يديه ببعضهما البعض كعادته، ثم مدهما وتحسَّس جبهته، أبعدهما سريعًا ثم قال: "إن حرارته عالية جدًّا، حتى بالنسبة لنا نحن...".

وتحشرج نفَسُ "ممدوح" أكثر وأكثر، وصار قاب قوسين أو أدنى من الموت، فأخذ "سعيد" يبكي وهو يرى صديقه في هذه الحال ويقول: "يا صديقي العزيز، ليتني أستطيع أن أفعل أي شيء".

ثم تعالى صوت بكائه أكثر حين سمع "راضي" يقول: "إنه يموت جراء ذلك الوباء الذي لا يوجد له علاج".

وقف "خالد" يتطلع بذهول إلى الجميع، ثم توقف به الزمن فجأة.. توقفت الحركة والكلام من حوله، حت الأنفاس.. ثم وجد نفسه ينتقل إلى نفس البقعة حيث

كان يمسك بكتاب البشارة لحظة خروج النور منه ودخوله صدره، لكنه كان يفعلها ببطء في هذه المرة، مما سمح لقلبه أن يعي ما يوجد بداخل النور.. لحظات فهم فيها "خالد" واستوعب من العلوم الكثير، ثم عاد مرة أخرى إلى مكانه، وتحرك به المشهد من جديد.

تحرك معه "خالد"، مد يده ولمس جبهة "ممدوح" وهو يتمتم بكلمات في سره، فهدأت أنفاسُ "ممدوح"، وعاد لون وجهه طبيعيًّا وتوقف السعال، ثم قام من مكانه ينظر في دهشة إلى "خالد"، مثله في هذه اللحظة مثل الجميع.

الفصل الثاني والعشرون

عاد بعدها "خالد" إلى محبسه غير مصدق ما حدث، يتساءل بينه وبين نفسه عن مصدر الثقة التي أحس بها تغمر نفسه، اليقين الذي ملأ قلبه بأنه قادر بالفعل على شفائه، وبينما يتذكر ما كان يقوله أثناء لمس جبهة "ممدوح" سمع الصوت داخل عقله واضحًا قويًّا، ويقول:

– ماذا تتذكر مما قرأت عن روح الخيال في كتاب البشارة؟

فاجأه السؤال لكنه حاول أن يستجمع أفكاره كعادته، ثم قال:

– هي الروح المسؤولة عن إحياء الخيال، أو بالأحرى إحياء ما يراه الخيال وإظهاره في صور يراها القلب ويفقه معناها إن استطاع، والخيال يرى ما وراء الظاهر وأحيانا يرى ما وراء النفس.

– ماذا تعني بإحياء الخيال وصوره؟ هل هي حياة مثل حياة الإنسان؟

– بالطبع لا، الحياة لها صور عديدة، وكل منها لها قوانينها وحدودها، والتي منها حياة الخيال التي لها قوانينها وحدودها الخاصة بها.

عاد الصوت يسأله وقد أثار انتباهه فهم "خالد" العميق للأمور:

– هل تعتقد أن كل ما يراه الخيال يكون في صورة أشياء جميلة وأنوار؟ أم تراه يرى الشرور والفظائع أيضا؟

أجاب "خالد" وهو يحاول أن يزن الكلام:

– أظن أنه بحسب حال الإنسان نفسه يرى ما يرى.

اكتفى بتلك الإجابة المقتضبة وصمت، ففي الحقيقة خمن أن الصوت لا يسأله فعلًا بل يريد أن يخبره شيئًا ما، وكان تخمينه في محله، فقد تحدث الصوت، وبنبرة المعلم الذي يشرح أمرًا ما قال:

– السحر يحتاج إلى إتمام صورتيه حتى ينفذ بالكامل، صورته المادية وصورته المعنوية، أما الصورة المادية فتحمل الأقسام والطلاسم أو العزائم التي يصنعها الساحر بغرض حدوث تأثير ما على المسحور، والأهم من ذلك لتفتح الباب لنفاذ السحر نفسه إلى نفْسِ المسحور وباطنه، ونفاذ خادم السحر إن وجد، والصورة المادية من السحر قد توضع في طعام أو شراب وقد تلقى في طريق المسحور ليسير فوقها، وعلى حسب نوع السحر والهدف منه تأتي طريقة نفاذة وعمله، كما توجد أنواع منه لا تحتاج إلى خادم من الجان، ويكون الغرض منه ربط المسحور بشيء ما كدوران الأفلاك، أو صعود الماء وهبوطه في نهر أو بحر، أو نمو نبات أو ذبوله، أو حتى ربطه بمنازل القمر.

تجهم وجه "خالد" وشرد ببصره عبر نافذة الزنزانة بعيدًا؛ غير مصدق ما قد يفعله الإنسان بأخيه الإنسان، ثم عاد ينتبه إلى الصوت الذي يقول في هذه اللحظة:

– إن السحر يتمركز في منطقة ما من الجسد كالمعدة مثلًا، ثم يحيط نفسه بوسائل الأمان التي تبقيه خفيًّا قدر المستطاع وتحميه من الخروج من الجسد حتى ولو بالصدفة، والأهم لتحميه من الأشياء المضادة للسحر نفسه كما ستفهم فيما بعد، وهنا يبدأ هذا السحر العمل على اختراق نفْسِ الإنسان؛ لكي ينفذ خادم السحر إلى خياله بغرض التحكم فيه، وبحسب قوة السحر ونوعه يكون خادمه والصور التي يتجسد فيها في خياله؛ فمثلًا السحر بغرض التخويف تظهر فيه صور وحوش وحيوانات مفترسة، والسحر الذي يجعل الإنسان يصاب بالضيق والعزلة تكون الصفات التي يطبعها الساحر على هذا الجان هي حب الوحدة ودفن الأمل بداخله والانفصال عمن حوله وهكذا.. لكن في النهاية، هذه التجسيديات كلها يتحكم فيها خيال الشخص المسحور، فهو في النهاية من يرى وهو أيضا من يترجم رؤياه، يتحكم فيها مخزونه الحقيقي من الصور والمعاني والكلمات، فقد يجبر الشخص المسحور خادم السحر هذا على التجسد في صورة ما بحسب خياله هو.

– أتقصد أنه في مرحلة ما قد يرى المسحور صورة هذا الجان وقد تجسدت بما يريد الساحر نفسه؟ أم يكون التجسيد في صورة هي بالفعل موجودة في خيال المسحور رآها في الواقع من قبل؟

– الصورة تتبع المخزون في الخيال، فلا يمكن أن تأتي صورة ليس لها أصل في مخيلة المسحور نفسه، وقد يحدث تركيب من عدة صور، ولكن في النهاية يجب أن تكون كلها من مخزون مخيلته نفسه.

صمت الصوت لحظات ثم قال:

– وكذلك الأنوار والروحانيات التي تساعد المسحور على مقاومة السحر، فقد تظهر له في أحلامه ومخيلته في صور جميلة وأحيانًا في صور أشخاص يعرفهم ويحبهم في الواقع، وقد تظهر بطرق تحتاج إلى التأويل والتفسير.

صمت الصوت مرة أخرى، حاول "خالد" انتهاز الفرصة للتفكير فيما سمعه، لكنه لم يصل لشيء؛ لقد عاد الصوت سريعًا للكلام، وبنبرة جادة قال:

– انتبه جيدًا لما سأقوله لك؛ حتى تعرف مدى تأثير الخيال وروحه حقًا.. إن الخيال هو من يخلق المجال حيث يلتقي العالَمان معًا، حيث يؤثر الجان على الباطن تأثيرًا معنويًّا يحمل بين جانبيه الأثر المادي، يقابله جزء السحر في الظاهر حيث يأخذ التأثير المادي ويلقي به إلى الباطن وهو يحمل بين جانبيه الأثر المعنوي، بحيث تكون النفس بين فكي السحر.

– هل تقصد أن هذا المجال هو ما يعطي الأفعال والصور المعنوية في الباطن الفرصة لكي تتحرك خروجًا تدريجيا فيبرز تأثيرها في الظاهر، والعكس من الظاهر إلى الباطن؟

رد الصوت على "خالد" بنبرة إعجاب واضحة:

– أحسنت يا "خالد"، مع الأخذ في الاعتبار أن تأثير الباطن على الظاهر يصل ضعيفًا مقارنة بقوة الأصل، وكذلك تأثير الظاهر علي الباطن.

وقبل أن يقول "خالد" أي شيء آخر عاد الصوت يكمل كلامه:

– وعلى كلٍ، للقضاء على السحر يجب القضاء على جزئيه، الباطن، والظاهر، فيجب القضاء على الجزء الذي يتحكَّم فيه من الجسد والذي ينصب على طبقة ما من النفس، بالإضافة للقضاء على الجزء الذي يسيطر على روح الخيال، وقد يمتد إلى الأفكار وطبعًا ينصب على مساحة كبيرة من النفس.

كان "خالد" يستمع إلى الصوت في انتباه تام عندما قفز سؤال إلى رأسه فجأة حتى أنه لم يستطع التحكم في نفسه فأسرع يقول:

– هل النار التي أطفأتها من قبل هي نار سحر الجسد والتي تنصب بدورها على جزء من النفس؟

– نعم، أنت أبطلت جزء السحر من الجسد، ويبقى الجزء المسيطر على النفس.. حين يعود الاثنان واحدًا سيتكون مجال من النور يحمي النفس من كل سوء.

– هل السحر في الباطن يؤثر فقط في روح الخيال؟ أم أنه قد يمتدُّ إلى أجزاء أخرى من الروح؟

أجابه الصوت:

– قد يؤثر السحر في الروح الحيواني حتى يوهم المسحور بأنه يرى أشياء غير موجودة ويسمعها.

ثم خفت الصوت وهو يكمل:

– وقد يمتد تأثيره ليطول الروح المدبر، وهنا يصيب الجسد بالأضرار ومنها الشلل أو فقدان النطق، وقد يمتد تأثيره إلى محاولة إيقاف عمل القلب والموت.

صمت الصوت حين وصل إلى هذه النقطة حتى قطع "خالد" الصمت وسأله:

– ما هو الحسد؟

فأجابه الصوت:

– لا تهمل أبدًا النية في أي فعل، ولا تعتقد أن المعاني تظل إلى الأبد معاني! كما أن هناك لأي جسد ما معنًى وشرحًا، فقد يأتي وقت يتجسد فيه المعنى بحيث تكون النية هي من يتحكم في ذلك التجسد.

صمت الصوت لحظات قبل أن يضيف في سرعه:

– ستعرف الكثير في حينه، المهم الآن أن تتمكن من تحرير الروح والنفس.. قم بعملك مع المساجين من حولك لتحرر نفسك.

لم يفهم "خالد" الجزء الأخير من الكلام، لكنه علم بإحساسه أن الصوت اكتفى من الكلام إلى الآن.

الفصل الثالث والعشرون

أصبح كل المساجين يعرفون "خالد" جيدًا، السجن كله يتحدث عنه، فبعد ما حدث من أمر شفائه العجيب لـ"ممدوح" أصبح الجميع يتناقلون أخباره فيما بينهم.. يتحدثون عن استطاعته شفاء الأمراض كلها، وقدرته على رؤية الخطأ من الصواب والتي تتيح له نصيحة من يأتيه طلبًا لها في أمر ما.. لقد أحبه الجميع ووثق به.

أما هو، فقد اصبح أكثر صفاءً عن ذي قبل؛ يشاهد الأسرار عيانًا؛ يرى الأمور الباطنة رأي العين، يرى من عالم الملكوت في يقظته.. يرى نفسه يخترق حجاب الثلج ويرتفع بين الروحانيات والملائكة هناك، ويتحول إلى نور يسبِّح معهم ويهيم.

كما أصبح "سعيد" و"ممدوح" و"عصام" له ملازمين، وانضم إليهم "باهر" و"شهير"، بالإضافة لصديقيه "راضي" و"عتيق"، يلازمونه وكأنهم حواريوه.. تراهم يجلسون برفقته كثيرًا في فناء السجن ويتبادلون أطراف الحديث.. في إحدى المرات، وبينما هم جالسون هناك، نظر إليهم "خالد" وقال:

– ماذا تقولون إن أخبرتكم أن الشيطان يحاول أن يسرق أرواحنا؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض دون أن يتكلم أحد منهم، ما عدا "شهير" الذي قال مستنكرًا:

– كيف تعرف كل هذه الأمور الغريبة التي تحدثنا عنها؟!

فقال له "خالد" وقد ثبر أغواره:

– ألا تصدقني؟

ابتسم "شهير" محاولًا أن يخفي ما بداخله، وقال:

– أنا فقط أسأل لأتعلم.

فقال "خالد":

– أخبر أحدهم صديقه بأن شخصًا ما سوف يأتي الليلة ليسرق بيته، لكن ذلك الصديق وبدلًا من أن يصدق ويأخذ الحيطة سخر وقال في نفسه: "وكيف له أن يعلم؟".. وجاء السارق وسرق بيته.

صمت "خالد" يتفرس في وجوههم قبل أن يُكمل:

– ماذا تراه يفعل حين يخبره أن شخصًا ما سوف يأتي ليقتله؟ هل تراه يسخر منه ويسأله كيف له أن يعلم؟ أم سيصدقه ويأخذ حذره؟

أجاب الجميع في صوت واحد:

– سيصدقه ويأخذ حذره بالطبع.

هنا قال "خالد":

– سوف يمر بنا الآن شخص ما وحين يرانا سيضحك عاليًا، ثم سيسقط فجأة أمام أعيننا.

هم "شهير" بقول شيء ساخر، ولكن شخص ما أتى وضحك عاليًا بلا أسباب، ثم سقط وصرع أمام أعينهم، فتوجه "خالد" إلى الشاب الصريع، ووضع يده على رأسه، فخرج من أذنه اليسرى مخلوق أسود صغير يشبه الجرو له قرنان دقيقان، لم يلبث ذلك المخلوق أن جرى مبتعدا حتى اختفي عن الأعين.

هدأ جسد الشاب، ثم قام من رقاده يتلفت حوله في حيرة، قبل أن ينظر إلى "خالد" ورفاقه، ثم يبتعد بعيدًا عنهم دون أن ينبس ببنت شفةٍ، فقال "خالد" في ثبات:

– هل تصدقونني الآن حين أقول لكم إن الشيطان يريد أن يسرق أرواحكم؟

فأجاب الجميع و"شهير" معهم:

– نعم.. نعم.

وبينما هم على حالهم هناك، تلفَّت "عتيق" حوله ثم قال:

– إن السجن أصبح نظيفًا وأكثر تنظيمًا، والمساجين أنفسهم يبدون أكثر هدوء.

نظر إليه "راضي" وقال:

- إنهم يسيرون في مجموعات، يشبه أعضاء كل مجموعة منهم بعضهم بعضًا.

تكلم "شهير" معقبًا على كلامه وبنبرة إعجاب واضح:

- انظر إلى هؤلاء.

وأشار إلى مجموعة من المساجين، وهو يكمل كلامه:

- أجسادهم قوية وسليمة وطلعتهم بهية.

رد عليه "عتيق" وقال:

- إنهم يختالون ويتفاخرون على الآخرين.

هنا قال "خالد":

- هل من الممكن أن تدوم الشجرة راسخة ثابتة والسوس ينخر في جذرها؟ إن أكل الغرور النفس، فسيسقط بناء الإنسان ولن يدوم.

صمت بعدها وشرد بذهنه بعيدًا، ولم يلاحظ تلك النظرة التي رمقه بها "شهير" بطرف عينه.. كان يفكر طويلًا فيما أصابه بعد أن دخل نور الكتاب قلبه، كان على حاله غارقًا في التفكير عندما سمع صوتًا يشبه صوت جده يدوي في عقله ويقول:

- احذر من شهير.

ابتسم "خالد" رغمًا عنه وأحس فعلًا بالسعادة تغمر نفسه فقال بعقله:

– أين كنت؟ لقد اشتقت إليك أيها الصوت.

– أنا معك دائمًا لا أفارقك أبدا.

تركهم "خالد"، وذهب إلى مَحبَسِهِ ليختلي بنفسه، كما اعتاد أن يفعل مؤخرًا، جلس على طرف فراشه، فعاد الصوت يسأله:

– ماذا عرفت عن المساجين؟

– عرفت عنهم الكثير.

– وبم تشعر حين تراهم؟

فأجاب "خالد" على الفور وكأنه ينتظر السؤال:

– مع كل واحد منهم يأتي إحساس مختلف لا أستطيع وصفه في وقته، وكأني أختبره لأول مرة.

خمن "خالد" أن الصوت كان يبتسم قبل أن يقول:

– هي أفعال وذكريات ترتبط بصفات ذات.

– أفعال وذكريات ترتبط بصفات ذات!

- نعم هي كذلك، اخرج إلى فناء السجن الآن.

قام "خالد" وعبر الباب واتجه صوب الفناء، فاجأه أن الضباب قد اشتد مرة أخرى، وأصبحت الرؤية معه عسيرة، وبرغم ذلك استطاع أن يميز شخصًا ما يجري ناحيته.. الغريب في الأمر، أنه يرى ذلك الشخص بالذات واضحًا، وما أن وصل إليه حتى احتضنه في لهفة صادقة وود واضح.

أصابت ذلك الشخص الدهشة عندما قابله "خالد" بنظرة استغراب، فقال:

- "خالد"! ألا تعرفني؟

نظر إليه في حيرة، فتكلم ذلك الشخص مرة أخرى:

- لقد كنا أعز صديقين في مرحلة الطفولة.

نظر إليه خالد "نظرة" أسف وأراد أن يقول شيئًا، أي شيء، لكنه لم يمهله، وأكمل:

- لقد كنا ندرس معًا، وأنت كنت تساعدني وتشرح لي ما يستعصي على فهمي.

تولدت فجأة في نفس "خالد" مشاعر لم يستطع تسميتها أو تصنيفها، فسمع الصوت في عقله يقول:

- إنها من صفة العطاء.

فتذكره "خالد"، وتذكر كل ما مرًا به سويا، بدت له في حينها كذكريات ومشاعر من حياة أخرى.. ثم أقبل شخص آخر نحوه، فقفزت إلى عقل "خالد" صورة طفل صغير يمسك بكرة في يده، يقذفها إليه في فرح واضح، ويطلب منه أن يعيدها إليه.

فقال الصوت:

– وهذا من الصفاء.

وهكذا، كل من كان في هذه اللحظة بالفناء، أقبلوا واحدًا تلو الآخر، وتذكرهم "خالد" جميعًا، لقد جمعتهم به أفعال وذكريات، عبرت عنها مشاعرة بصفات.. الغريب أنهم جميعًا بدوا له وكأنهم أطياف أحلام، وذكريات من حيوات أخرى، وليست من هذه الحياة، ثم بدأ يسمي منها بعض الصفات، منها الكبر والعناد والغرور، كما منها الصداقة والود والرحمة.

لكن الصوت عاد يدوي في عقله محذرا وهو يقول:

– احذر من شهير ورفيقيه الخفيين، احذر من الكراهية والغل والحسد.

الفصل الرابع والعشرون

انقشع الضباب من حول "خالد" فجأة، لكنه ظل على وقفته خارج محبسه مستغرقًا في أفكاره، يحاول أن يستجمع ما قاله الصوت.. فوجئ بـ"راضي" يسرع الخُطَى نحوه، وقف أمامه يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم قال:

- لا بد أن نتحدث الآن، هناك أمر جلل يحدث من خلف ظهرك.

ثم تجهم وجهه وقال:

- لا بد أن تأخذ حذرك.

- اهدأ، يا "راضي" واستجمع أفكارك، ثم أخبرني بما تريد.

ظل يلتقط أنفاسه ببطء حتى هدأ، فقال:

- "شهير" خائن، جلس معنا، واخترق صفنا، وهو الآن يحضر لتسليمك، إلى بعض الحراس؛ ليفتكوا بك؛ أو يأخذوك بعيدًا، بحيث لا يعرف أحدًا مكان.. سيجعلك تستنشق مادة ما، تغيبك عن الوعي، ثم يعطيهم إشارة، فيأتون إليك، ويأخذونك بعيدًا.

بدا على وجه "خالد" وصوته الهدوء وهو يسأله:

- وكيف علمت بهذا الأمر؟

- "عتيق" أخبرني.

- وأين "عتيق" الآن؟

- لقد سبقنا إلى المحبس ليجهز شيئًا ما ليفسد به خطة "شهير".

كانا يسيران جنبًا إلى جنب متجهين لرؤية "عتيق"، في أثناء ذلك أخبره "راضي" بكل ما قاله له "عتيق" بالتفصيل ومن البداية.

منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصر "عتيق" على "شهير" لم يشعر ناحيته بالراحة، حاول كثيرًا أن يبدل هذا الشعور بداخله، أو على الأقل يسيطر عليه، دون جدوى، ظلَّ يخبر نفسه أنه مجرد انطباع، ربما كونه نتيجة فعل قام به أو كلمة قالها ولم ترُق له، وأسست لذلك البناء من عدم الثقة بداخله.. عندما تطلع إلى نصفه القصير، تجهم وجهه مغمغمًا: "تمامًا، كما تقول، شكله مريب وغير مستساغ، نعم.. نعم، يبدو زائفًا كأنه يرتدي قناعًا"

ثم هبَّ واقفًا في مكانه فجأة وقال: "عرفت الآن لماذا أرتاب فيه، إنه ينظر إلى "خالد" نظرات تحمل الكراهية والحسد، هي نفس النظرات التي كانت تبدو واضحة في أعين أحدهم، عندما يقصد الساحر لعمل سحر يؤذي به آخر.. نعم، إنها نفس النظرة التي كان يرمق "خالد" بها عندما يظن أن أحدًا لا يراه، لكنني رأيته ونظرته تفضحه"

من لحظتها، قرر "عتيق" مراقبة "شهير"، ولأنه أحد السحرة المهرة، كان من السهل عليه أن يخفي أحد نصفيه لفترة من الزمن، وقد كان، لقد صنع ما يشبه العباءة التي تُستخدم للإخفاء.

ومن حيث لا يراه، رأى هو "شهير" يسير بمفرده في فناء السجن، ثم قابل بعدها نفس الجماعة من الفتية ذوي الأجساد القوية والطلعة البهية، فحياهم وانضم إليهم.. ثم بدأوا الحديث عن خالد ومدى تسامحه وطيبة قلبه.

قال أحدهم: "خالد طيب القلب فعلًا، لقد أخطأت من قبل في حقه لكنه سامحني".

سأله آخر: "كيف هذا؟ احكِ لنا".

فقال: "هل تذكر حين كان يسير بجوارنا فسخرت من منظره وناديته بالبغيض؟".

أجابه: "نعم، أذكر لقد التفتَ إليك وابتسم في ود واضح، حتى أنه اقترب منا وحيّانا جميعا، ثم عرف نفسه إلينا قبل أن يطلب أن يتحدث معك على انفراد، لكنك لم تخبرنا أبدًا ماذا دار بينكما في ذلك الوقت".

قال: "عندما طلب مني أن نتحدث على انفراد ترددت في القبول، لكن شيئًا ما في نظرته جعلني ألبي طلبه، تحركت معه حتى أخذنا جانبًا، ثم نظر إلي وابتسامة الود ما زالت على وجهه وهو يقول: يا أخي، هل تعرف عني شيئا؟، قلت له: لا،

فقال: فلمَ تسخر إذًا مني؟، شعرت بالإحراج منه ونظرت إليه ولم أجِبْه، فعاد يقول: إن جميع المخلوقات تحوي ما يكفي من الجمال بطريقة أو بأخرى وإن لم ترَه الأعين، كما أن الجميع فيه من القبح الكثير وإن لم ترَه الأعين، قد أراك جميلًا من الخارج، لكنك قبيح من داخلك، وقد تراني قبيحًا من الخارج وبداخلي الجمال".

ساد الصمت لحظات بدا التردد على وجه الشاب، ثم حسم أمره وقال: "الغريب أنه مالَ على أذني وأخبرني بذلك الأمر القبيح الذي أفعله، ولا يعلمه أحد عنّي؛ فأنا لم أطلع عليه أي أحد من قبل، وبعد ذلك أخبرني أنه يسامحني، ثم تركني وذهب لحال سبيله، فلم أسخر من أحد بعدها أبدًا".

لكن "شهير" أسرع يتدخل في الكلام وقال: "إن خالد يدعي الأخلاق والفضيلة، لكنه في الحقيقة يكرهكم ويحسدكم لأنكم أقوى منه وأجمل".

صمت بعدها لحظات، أخذ الجميع يتطلعون إلى بعضهم البعض، ثم تابع: "لقد كنت أجلس معه حين مررتم من أمامنا، فقال عنكم أنكم مغرورون وقبيحون".

عاد نصف "عتيق" القصير وهو ما يزال مرتديًا عباءة الخفاء، ثم نظر إلى نصفه الطويل وكأنه يقول له: أرأيت؟ فأومأ له برأسه.. ومنذ تلك اللحظة والنصف القصير يراقب "شهير" كظله.

بدا أن كلا النصفين يشعران بالضعف بمجرد أن يبتعدا عن بعضهما البعض، لكنهما يحبان "خالد" كثيرًا، ومستعدان لفعل أي شيء لحمايته والذود عنه، وفي

النهاية هما قريبان من بعضهما البعض؛ يستطيعا أن يجتمعا مرة أخرى في حالة أن مسهما ضعف شديد، فهما ما يزالان داخل حدود السجن.

في واحدة من المرات وبينما النصف القصير يراقب "شهير"، وجده يتسلل خلسة خارج محبسه بعد أن علا الصوت يعلن وقت نوم المساجين، ظن أنه سوف يخرج متجهًا إلى الفناء في الخارج، لذلك أصابته الدهشة عندما رآه يقابل أحد الحراس خارج الزنزانة، ثم اقتاده الحارس عبر الممر إلى نهاية المبنى، فتبعهما، وحين اقترب منهما فوجئ بالحارس يلمس حجرًا في الحائط، فانفتح في هذا الحائط بابٌ، ثم التفت الحارس إلى شهير وهو يقول: "لا تتأخر كثيرًا هذه المرة، ولا تجعل أي أحد يراك، قال له "شهير" في هدوء: "اطمئن".

ثم عبَر الباب، وبينما "شهير" يهبط درجات السلم الذي ظهر خلف الباب، تبعه النصف القصير من طرف خفي، أحصى وهو يهبط خلف "شهير" ما يقرب من سبعة طوابق تحت أرض السجن، وفي النهاية ومع انتهاء السلم، بدأ يسير خلفه في اتجاه أفقي، حتى وصل لغرفة حبس وحيدة في آخر الرواق، وقف "شهير" في احترام أمام قضبانها.

ثم سمع نصف "عتيق" القصير صوت يشبه الزمجرة يأتي من داخل القضبان، وإن لم ير صاحبه الذي قال بحشرجة واضحة: "ما الأخبار؟"

أجابه "شهير" بصوت يبدو عليه الخوف: "أنا أعمل بكل طاقتي، أفعل كل ما أستطيع لأجعل المساجين يكرهون خالد".

بدت زمجرة ذلك الصوت واضحة، ثم قال: " وهل كرهوه؟"

تردد "شهير" وبدا ذلك في صوته واضحًا، وهو يتكلم بتلعثم ويقول: "إنه يقوم معهم بأعمال غريبة تشبه السحر، فهو يشفي المرضى ويطمئن الخائف.. إنه يزرع بين الجميع الحُب حتى أن معظم الحراس والمساجين أصبحوا على وفاق بسببه".

صاح الصوت في قوة جعلت "شهير" يركع على قدميه من شدة الخوف ثم قال: "أنت فاشل! لا بد أن تسرع أكثر وتضغط عليه، لماذا لا تستعمل تلك المواد التي أعطيتها لك؟ كيف لا تستطيع أن تثقل صدره عندما تقترب منه؟ كيف لا تستطيع أن تجعله يفقد تركيزه؟ كيف لا تستطيع أن تجعله يفقد الرغبة في العمل والنجاح؟"

أسرع يحيبه: "أنا أفعل ما بوسعي".

قاطعه الصوت: "لقد خاطرت بإدخالك إلى السجن، وأعطيتك تلك الهيئة حتى تستطيع الاقتراب منه وإضعافه، حتى أنني ارتضيت بأن أكون أحد المساجين هنا".

سال زبد من فمه ثم أضاف: "لقد استملت من الحراس الكثيرين بالفعل، واقتربت من الوصول إلى مفتاح سجني.

بعد لحظات من التردد وبلع الريق، قال "شهير" بتلعثم: "لكن كيف تمكنوا من أسرك وسجنك وأنت...".

لم يكمل تساءله إذ زمجر السجين قائلا: "لم يأسرني أحد، أنا من غيرت شكلي، ودخلت إلى هنا بقدمي؛ وهو ما أضعف من قوتي"، وقبل أن يسأله شهير لماذا؟ أضاف هو بصوت قوي: "وإلا ما كان في استطاعتي أن أدخلك أنت وأمثالك إلى هنا".

أصاب الفزع نصف عتيق الذي يستمع إليهما، وشعور بالخطر القريب بدأ يتنامى بداخله، نفض تلك الفكرة التي تلح عليه بأنه يعرف صاحب الصوت، وتمتم في نفسه: "لا يمكن لا يمكن.."، لكن عندما تحرك صاحب الصوت ودخل في مجال الرؤية، انتفض جسده مغمغمًا: إنه هو، إنه الذئب الأسود، مندوب الشيطان الذي بدأ كل هذا مع سحرة الجان.. وشعر بالخوف الحقيقي على خالد".

ثم قال مندوب الشيطان: "لابد أن نضرب بسرعة وقوة، خذ هذه المادة لتنثرها على وجهه عندما يكون بمفرده في المحبس، ويجب عليك أن تتأكد من أنه قد استنشقها".

بدت اللهفة على صوت "شهير" عندما سأله: "ماذا سيحدث له عندما يستنشقها؟"

أجابه الذئب وهو يبتسم بمكر: "سيحل عليه الظلام".

صمت الذئب فجأة وقد شعر بوجود أحدهم فاسرع يقول: "اذهب الآن، ولا تدع أحدهم يراك خصوصًا عتيق".

شعر نصف "عتيق" القصير بالوهن مع طول المدة التي قضاها بعيدًا عن نصفه الآخر، بالرغم من ذلك فقد صعد الدرج عدوًا، ثم واصل عدوه دون راحة حتى قابله داخل المحبس، وأطلعه بطريقتهما على كل ما حدث.

بالنور والرحمة يُمحى الظلم والظلمة والصفات يصارع بعضها بعضا

الفصل الخامس والعشرون

وصل "خالد" و"راضي" إلى المحبس، وجدا نصفي "عتيق" منهمكين في تحضير شيء ما، حتى أنهما لم يلتفتا إليهما، فقال "خالد" بصوت عالٍ:

- ماذا تصنعان يا "عتيق"؟

- أجهِّز سحرًا سيصيب "شهير" هذا بما لا يحتمل.

قاطعه "خالد" قائلًا:

- هون على نفسك ولا تفعل.

تسمر كلا "عتيق" في جلسته لحظات، لكن أطولهما هبَّ واقفًا فجأة ثم قال مستنكرًا كلام "خالد":

- لا أفعل! كيف تطلب مني ألا أفعل؟ سوف ألقن هذا الخائن درسًا لن ينساه أبدا.

قاطعه "خالد" مرة أخرى وهو يقول بنيرة هادئة:

- لن نرد السيئة بالسيئة، لن أبادل كرهه بكره، بل بالتسامح والحب.

تجهم وجه "عتيق"، ولم يدرِ ماذا يقول.. تدخل "راضي" في الكلام قائلًا:

– دعني إذًا أجهز شيئًا آخر، سيمنع تأثير مادته تلك عليك.

نظر إليه "خالد" وهز رأسه علامة الرضا.

****

بمجرد أن ذهب "راضي" ومعه "عتيق" ليحضرا المواد اللازمة لصناعة ذلك الشيء دلف "شهير" إلى حيث يوجد "خالد" بمفرده، تلفت يمينًا ويسارًا في اضطراب واضح ثم قال:

– هل أنت بمفردك؟

أومأ "خالد" برأسه قبل أن يقول ببطء وهو يضغط على الحروف:

– نعم، يمكنك فعل ما يحلو لك.

ثم أكمل:

– لن أمنعك.

تطلع "شهير" إلى "خالد" مندهشًا من ثباته.. نثر المادة في سرعة على وجه "خالد"، ولكن قبل أن تصله حدث نفس الأمر مرة أخرى، لقد توقف الزمن من حوله.

تسمر "شهير" في مكانه فبدا كتمثال يرفع يدًا تنبثق منها لسنتميترات قليلة مادة لامعة.. ثم رآه عبر النافذة يأتي من السماء، متجهًا صوب الجدار الخارجي

لمحبسه، ابتسم "خالد" لرؤية الجواد الذي وقف في الهواء خارج النافذة، في اللحظة المناسبة قفز خارجها والتقطه الجواد وطار به بعيدًا.

انشرح صدره وهو يتنفس الحرية، والجواد يحلق به عاليًا، ثم بدأ يشعر بخفة الوزن، كأنما أصبح روح بلا جسد.. ثم هبط الجواد على الثلج، بجوار الكوخ.. صعد "خالد" الدرجات مسرعًا، ثم فتح الباب في لهفة ورأى الشيخ يجلس في المكان نفسه وبالطريقة نفسها، لكن بمفرده هذه المرة.

ابتسم الشيخ له ابتسامة الصفاء والود ذاتها وقال:

- أقبل.

جلس "خالد" أمام الشيخ الذي قال:

- الآن، هو الوقت الأهم.. ماذا قرأت من كتاب الحكمة؟

أجابه بصوت يحمل علامات التركيز والهدوء:

- بدت لي الكلمات والسطور تتحدث عن الشيطان والجان وتدابيرهم ومكرهم لإخضاع الإنسان، والسيطرة عليه، واستعباده؛ لينسى الخالق ويعبدهم هم، وقرأت أيضًا عن السحر وتأثيره على الأبدان، وأيضًا الحديث الكثير عن الأرض والجبال والبحار وكيفية بداية الخلق.

هز الشيخ رأسه ثم سأله مرة أخرى:

– وماذا قرأت من كتاب البشارة؟

– قرأت عن تركيب روح الإنسان ونفسه، وعن الصفات وعلاقاتها بالنفس، كما قرأت عن الشيطان وكيف يؤثر في هذه الصفات، وأيضًا عن تأثير السحر عليهم، والظلمة والنور.

– وماذا فهمت من كتاب البشارة؟

صمت "خالد" قليلًا ليستجمع أفكاره، ثم قال:

– فهمت أن العقل يحوي ذات الإنسان ومكنوناته، أحياه الخالق على الصورة التي نعرفها حين نفخ فيه الروح، وعند التقاء الروح بالجسد تتكون النفس، وللنفس جوهر يسمى القلب يحتوي بداخله على اللب والفؤاد؛ اللب كأنه الفطرة السليمة حين تزكيها تأتي بالتقوى، والفؤاد هو وعاء المشاعر والأحاسيس والهوى حين يتملكك يكون فيها الميل والفجور، وبحسب إرادة العقل ومحتواه يتكون القلب بين فجوره وتقواه، وتظهر للعين الصفات التي يمكن أن تراها في أفعال الإنسان وتسمعها في أقواله.

نظر إليه الشيخ نظرة تملؤها الفخر، فتذكر "خالد" نظرة جده له، عاد الشيخ يقول:

– كلام عظيم، لكن دعنا نوضح معًا بعض الأفكار والمفاهيم.. إن الخالق سبحانه قد خلق نفوس البشر متساوية، ثم بث فيها التقوى والفجور، النفس في

ذاتها هبة من الخالق يضعها في الإنسان حين يضع في العقل روحه، تخيلها فراغًا من الدخان، وعلى حسب أوامر العقل ومكنوناته يتكثف الدخان في طبقات وحلقات وكل طبقة بها حظها من التقوى والفجور، تماما كالأحوال، فليس هناك للإنسان نفس واحدة مطمئنة أو خائفة أو غيرها ولكنها أحوال النفس، هي طبقات كالسموات وعلى حسب الفترة التي يكون فيها الإنسان وخبرته وإيمانه وثباته وتوبته، يكون حاله ونفسه التي تظهر منه، ويصارع الخير الشر بداخله حتى يظهر ما بداخل ذاته أكثر وأكثر.

صمت الشيخ بعدها لبضع ثوانٍ، ثم سأل فجأة:

- هل تعلم ما العدم الحقيقي؟

أجابه "خالد" وهو يحاول أن يزن كلماته:

- أظن أن العدم هو ضد الوجود، بمعنى إذا انتهى وجود الشيء ذهب إلى حيث لا وجود.

بدا أن "خالد" سيضيف شيئًا ما لكنه لم يفعل، فقال الشيخ:

- انظر يا "خالد"، لما هو حولك جيدًا وأجبني، متى آخر مرة تناولت فيها الطعام؟

انتبه "خالد" إلى أنه بالفعل لا يأكل ولا يشرب، فأكمل الشيخ كلامه:

– دون الذكريات والأفعال مع المساجين هؤلاء، هل كنت ستختبر هذه الصفات وتعرف ماهيتها؟

أجاب على الفور:

– لا أعتقد ذلك.

– إن العدم الحقيقي، عندما تقف عاجزًا عن معرفة ذاتك، عندما لا تملك القدرة على تمييز مكنوناتك، عندما تسبح في الفراغ لا تدري لا عن نفسك ولا عمَّن حولك، قد يكون لذاتك وجود، ولكن بدون أن تدرك وجودك فأنت في العدم.. من أكبر نِعَم الخالق على الإنسان هي أن أوجده على هذه الصورة من صور الحياة.. نعم، يا "خالد" للحياة صور كثيرة أكثرها كمالًا هي صورة حياة الإنسان نفسه.

تغيرت فجأة نبرة الشيخ وهو يقول:

– احضر يا "عتيق"، ومعك "راضي".

اندهش "خالد" عندما رآهما أمامه فجأة، ثم ابتسم لهما ولم ينطق بكلمة، فقال الشيخ:

– "عتيق" هل أنت حي؟

– نعم، أنا حي.

فسأله الشيخ في ود:

- هل تدرك ذاتك وصفاتك؟

- نعم أفعل.

- هل تدركهما بنفس الدرجة التي يفعلها الإنسان؟

طأطأ "عتيق" رأسه وقال:

- ليس بالدرجة نفسها، إن طبيعة خلق الإنسان تتميز عن الجان بوجود الجسد الذي يعطي له بعدا ماديًا يزيد من إدراكه للأمور، نحن - معشر الجان - عندما ننظر إلى الإنسان نرى نفسًا واسعة بلا حدود تكاد تحتوي المعارف جميعًا.

- إن الخالق أوجدك من العدم تمامًا كما أوجد "خالد"، لك ذات وعقل وله ذات وعقل، كلفك كما كلفه، كلفك على قدر احتمالك وخلقتك، وكلفه على قدر احتماله وخلقته، ولكن مع أفعال الجان في الأرض والتي وضح جليًا أنها بسبب نقص في قدراتهم على إدراك الأمر.

صمت الشيخ قليلًا، ثم نظر إلى "راضي" وقال:

- أخبرني يا "راضي"، ماذا تعرف عن تركيب جسم الجان؟

حكَّ "راضي" يديه بعضهما ببعض ثم قال:

- خُلِق الجان من نار، ففي خلقه نور النار وحرارتها، كما أن فيه دخانها، نور النار في الداخل، ويخفيه الدخان من الخارج، فيختفي الجان.

ثم طأطأ "راضي" رأسه وأكمل:

– الريح والهواء يطيِّران النار يمينًا ويسارا؛ لذلك تجدنا يتحكم فينا الهوى، نعلم ذلك، والعابد منا يحارب هواه، وليس لنا ظل في الخارج، فظلنا يقع بداخلنا.

صمت "راضي" وبدا عليه التأثر واضحًا، فقال الشيخ:

– ولذلك فأنتم تفضلون المكوث دائمًا بجانب الإنسان، أليس كذلك؟

حرك "راضي" رأسه علامة الإيجاب، فابتسم الشيخ ثم نظر إلى "خالد"، وقال:

– من باب الجود والكرم أعطى الخالق الإنسان الصورة المادية في الظاهر بجانب تركيبه الباطن، أعطاه مُلكًا وملكوتًا، وتلك الصورة المادية تتيح للإنسان أن يختبر الأشياء ليس فقط في عقله وأفكاره بل بالإحساس المادي وروحه الحيواني التي تعطيه البعد المادي في فهم الأمور، يرى تأثير أقواله وأفعاله ويسمعهما، يختبر أفكاره ونواياه بالألم والحزن والفرح، يعطي البعد المادي للأشياء لعل الإنسان – بالاختبار واكتساب الخبرات – يتعلم ويفرق بين التقوى ومقتضياتها، وبين الفجور ومقتضياته.

صمت الشيخ لحظات تطلع فيها لوجه "خالد" ثم قال:

– أعطى الخالق الإنسان أوسع مجال بين الخير والشر، زرع فيه معاني التقوى، وزرع فيه معاني الفجور؛ ليس ليكون تقيًّا أو فاجرًا، ولكن ليعطيه المرجع والقياس، الذي به يقيس الأشياء والمكنونات والصفات، فيثمن الثمين، ويقبح القبيح

بمعرفة ذاتية مزروعة في نفسه، وبمعرفة مكتسبة عن طريق الجسد والأفكار والصفات.

بدت الجدية على وجهه، ثم استطرد بحزم:

– عد يا "خالد"، وحارب الكراهية والغل والحسد.

الفصل السادس والعشرون

ظهر الجواد في السماء فوق السجن وعلى ظهره "خالد"، ثم دار حول البرج ليختار مكانًا مناسبًا للهبوط بعيدًا عن الأعين، بمجرد أن هبط ترجل "خالد" واتجه صوب الفناء؛ لقد لاحظ وهو في الجو وجود بعض الحراس والمساجين هناك يحيطون بمسجون ما.. الغريب في الأمر أنه لمح "راضي" و"عتيق" يقفان بينهم ويبتسمان له، والأغرب أنه عندما اقترب من الجمع انتظموا في صفين عن اليمين واليسار ليصنعوا له ممرًّا بينهم.

تقدم بينهما حتى وقف أمام المسجون، "شهير" الذي كشف بعض الحراس مؤامرته، وعرفوا ما كان على وشك أن يفعله بـ"خالد"، واقتادوه خارج المحبس إلى فناء السجن.

التفت "خالد" تجاه "عتيق" و"راضي" وأشار بيده متمتمًا: "ماذا حدث؟"، وبدل من أن يجيباه ابتسما له في غموض، فأدرك أنهما بطريقة ما قد تسببا فيما حدث مع "شهير"، ثم اقترب أكثر من "شهير"، وقبل أن يقول أي شيء سمع أحد الحراس يقول:

– لماذا كذبت علينا وأخبرتنا أن "خالد" ينوي هدم السجن؟

إكفهر وجه "شهير"، ثم قال:

– ألا ترون أن الجميع يلتفون حوله ويوقرونه؟ الجميع يحبونه، حتى أنتم، الحراس! تحبونه.

مسح الزبد الذي سال من فمه ثم أضاف:

– الحب سوف يهدم هذا السجن، نعم "خالد" يريد أن يهدم السجن.

قاطعه "خالد" قائلًا:

– الحب لا يهدم، بل يعمر ويبني.

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وهو يكمل كلامه في بطء:

– لماذا لا تظهر رفيقيك الخفيين ليجتمع لك الغل والكرة والحسد معًا، ويراكم الجميع كما أراكم؟.

أخذ الفراغ عن يمينه ويساره في التموج، ثم تدريجيًّا بدأ يظهر من العدم جسدان هلاميان، أخذا رويدًا يتشكَّلان ويتجسدان حتى أصبحا صورتين طبق الأصل من "شهير"، تطلع الجميع في ذهول إليهما، ساد الصمت لحظات قبل أن يقول "خالد" بنبرة جادة:

– أم تريدني أن أناديكم بـ"سامر"؟!

ابتسم الثلاثة في مكر واضح، ثم حدث أمر غريب، لقد التحموا معًا وشكلوا شخصًا واحدًا، وجَّه "خالد" إليه الكلام:

– أليس كذلك، يا سامر؟

– نعم، أنا "سامر"، أخو "مراد".

– لم تحتمل رؤية النار تنطفئ على يدي، تمنيت لنفسك الشهرة والصيت، لم تحتمل أن يكون هناك شخص يحترمه ويحبه الناس أكثر منك، كرهتني وحقدت عليَّ، تمنيتَ أن تملك ما لديَّ، تمنيتَ لو أُسجن إلى الأبد ولا أعود، كرهك وغلك وحسدك جعلوا منك لعبة في يد الشيطان، الذي أدخلك السجن لتوقع بيني وبين المساجين والحراس، فتضمن بقائي هنا إلى الأبد.

صمت "خالد" لحظات اعتصر فيها الألم قلبه، ثم أضاف في حزن:

– أليس كذلك؟

لم ينطق "سامر" بأية كلمة وهو ينظر إليه نظرة تفيض بالغل والكره، مما جعل الجميع يتعجب عندما ابتسم "خالد" وقال:

– لكني أسامحك.. نعم، أنا أسامحك، فلن أرد على الكراهية بكراهية مثلها.

قالها ودار على عقبيه متجهًا صوب البرج حيث يوجد محبسه، علا فجأة صوت "عتيق" وهو يعدو في اتجاهه:

– احترس يا "خالد".

التفت "خالد" في سرعة، فرأى "سامر يحاول أن يغرس في ظهره خنجرًا كان يخفيه بين طيات ملابسه، لكن "عتيق" تلقى الطعنة بدلًا منْه.

لم يكتفِ "سامر" بذلك، بل نزع الخنجر في غلظة من ظهر "عتيق"، ثم حاول أن يغرسه في صدر "خالد"، الذي أصبح مواجهًا له، قفز الأخير جانبًا يتفادى الطعنة الغادرة، ثم سمع صيحة ما وصاحبها يقول في حماس:

– التقط السيف.

ظهر جده فجأة ملقيًا بالسيف إليه، التقطه "خالد" في مهارة.. هم "سامر" بطعنه مرة أخرى لكنه تفاداها وهو يقفز جانبًا في خفه، ثم غرس سيفه في كتفه، ترنح "سامر" قليلًا ثم سقط على الأرض مغشيا عليه.

نظر "خالد" إلى جده متعجبًا، وجرى نحوه يحتضنه في شوق، لفت نظره أن "عتيق" لم يمت، بل يقف على قدميه ويبدو عليه الإعياء الشديد، و"راضي" يحاول أن يداوي جرحه، كما كان هناك ثلاثة مساجين ينطلقون نحوه في سرعة، عرفهم "خالد" على الفور.

إنهم الثلاثة أنفسهم الذين شعر معهم بالكبر والغرور والعناد.. وعندما وصلوا إليه أحاطوا به، ثم هجموا عليه في محاولة منهم أن يشلوا حركته، وقبل أن يبدي أي رد فعل، تكلم أحد الحراس ممن استمالهم الذئب وفي صوت عالٍ وجه كلامه إلى هؤلاء الثلاثة:

– امسكوا به، هيَّا، ساعدوني في القبض عليه، لكن لا تقتربوا من بعضكم كثيرًا حتى لا يحدث ما لا يُحمد عقباه.

طوَّق المساجين الثلاثة "خالد"، ثم اقترب الحارس ليقبض عليه، لكن "عتيق" استجمع ما تبقى له من قواه وألقى عليه رداء الخفاء الذي كان يخفي به نصفه القصير، وفي اللحظة التي اختفي فيها "خالد" اقترب الثلاثة من بعضهم ليشلوا حركته، وقبل أن يدرك أيٌّ منهم الأمر، تلامست أجسادهم معًا، ثم التحمت أجسادهم الثلاثة وكونوا جسدًا واحدًا هم أيضًا، لكنه جسد على صورة "خالد" نفسه.. "خالد" آخر يقف بينهم يتلفت حوله في حذر، بدا لهم مختلفًا عن "خالد" الذي يعرفونه؛ بسبب الشر الذي يطلُّ من عينيه.. ثم نهض "سامر" يحركه الحقد والكره، تعلو وجهه ابتسامة مخيفة، اتجه مسرعًا إلى "خالد" الآخر ليغرس خنجره في قلبه.

سمع "سامر" صوت الحارس نفسه يأتيه مشوشًا يخبره ألا يقتل الغرور والكبر والعناد، فهو بذلك يساعد "خالد"، لكنه لم يفهم ما يعنيه بقوله هذا؛ شعور النشوة بقرب موت "خالد" قد غطى على عقله واستيعابه للأمور من حوله.. غرس "سامر" الخنجر في ظهره بحنكة، بحيث يصل القلب من الخلف، ثم أدار مقبضه ليتأكد من موته، وكان له ما أراد، لقد قتل "خالد" الذي شُبِّهت له صورته.

فجأة، سمع الجميع صوت زمجرة مخيفة.. ثم علا صوت ذئب، التفت الجميع تجاه مصدر الصوت فرأوه يعدو في فناء السجن ويقترب منهم، أصابهم الفزع، وارتجفت أجسادهم، لقد حضر مندوب الشيطان بنفسه.

الفصل السابع والعشرون

اقترب منهم الذئب وهو يعوي بصوت عالٍ، ثم اتخذ هيئة تشبه الإنسان، إلا أن أنيابه الحادة ومخالبه القوية كانت تظهر لهم في وضوح، ثم توقف عن العُوَاء وأخذ يحوم حولهم.. فوجئوا به ينقض على "سامر"، ويغرس فيه مخالبه ثم يرفعه عاليًا، والأخير يقول بصوت مُحشرَج:

– لكن لماذا؟ لقد قتلت "خالد" كما أمرتني!

خفض الذئب يده المغروسة مخالبها في جسد "سامر"؛ لينظر في عينيه مباشرة، ثم زمجر في قوة وقال:

– أيها الغبي، لقد ساعدته ليصبح أقوى مما كان؛ أنت لم تقتله بل قتلت فيه الكبر والغرور والعناد.

وفي لا مبالاة، مزَّق الذئب جسد "سامر" وحوله إلى أشلاء، ثم ألقاه على الأرض أمام أعين الجميع، وظهر "خالد" الحقيقي يخلع العباءة، ثم قال:

– لماذا تكرهني هكذا؟

كان الذئب يحوم حول "خالد" مبتسمًا بسخرية، ثم قال:

– إن تمزيق نفسك وإظلام قلبك هي مهمتي المقدسة.

ثم بدأ جسد الذئب يتضخم أمام أعين الجميع حتى تحول إلى كيان هائل الحجم، أسود مخيف، يصدر هديرًا قويًّا يشبه صوت ألف زلزال، ينفث من فمه ما يشبه النار لكنها بلا نور، هي نار ظلام.. تدحرج "خالد" بجسده وقفز هنا وهناك ليتفادى النار التي ينفثها عليه الكيان، ثم اقترب منه الجواد الذي ترك مكانه وأسرع إليه.

اعتلي ظهره في مهارة، وطار به مبتعدًا عن النار العجيبة؛ التي تهدم أي شيء تصطدم به وتحرقه في صمت.. وبعد عدة مناورات نفذها "خالد"، طار بالجواد في اتجاه الكيان نفسه لا يضمر فعل شيءٍ محدد، سمع صوت جده الذي قال: "لا تطعنه في قلبه، ولكن افصل رأسه بالسيف".

تذكر "خالد" الكلمات المدوَّنة على السيف والتي تقول: "سينعكس السحر ويموت مبعوث الشيطان، وتنتهي حياته الأبدية عندما يقطع رأسه سيف القدسية".. مال بجواده جانبًا ليتفادى قذيفة أخرى من النار، ثم تفادى ضربة من مخلب الكيان، ثم طار إلى أعلى بمحاذاة صدره؛ لم يستطِع الكيان الوصول إليه أو الإمساك به وهو يطير في هذا الموضع الملاصق له، عندما اقترب من رقبته، وقف على ظهر الجواد شاهرًا سيفه، ثم قال: "الآن، يا صديقي".

مال الجواد فجأة واندفع بكل قوته يقصد رقبة مندوب الشيطان، ضربه "خالد" بالسيف ضربة قوية فصلت رأسه عن جسده، خر الكيان على الأرض صريعًا، ومع ثقله جسده تشقق الأرض من تحته.. وكأنها كانت الإشارة، لقد بدأ كل شيء في

الانهيار، ورأس الكيان وجسده يذوبان ويختفيان أمام أعين الجميع.. ثم ظهر الشيخ المنير قائلًا بسرور: "انظر مرة أخرى من حولك يا خالد".

تلفت حوله فوجد البرج والسور يذوبان، تذكر فجأة ما كان مكتوبًا على باب السجن: "إنه سجن الذات"، وقرأ لأول مرة ما كُتب على ملابس الحراس: "حراس الصفات".. وفهم الأمر، المساجين هم ذكرياته وأفعاله وصفاته، والحراس هم تقواه وفجوره، هم أحواله، والسجن هو نفسه وذاته.. ثم تجمد جميع الحراس والمساجين في أماكنهم.

عاد الشيخ يقول: "عندما وجد الشيطان أن المعاصي تغطي القلب بالران، والران إن كان يحجب وصول المزيد من النور إلى القلب إلا أنه لا يستطيع أن يظلم أنوار الفطرة نفسها؛ فقد يستعيد الإنسان نوره بالتوبة، هنا فهم الشيطان أن عليه إضلال الإنسان، فعلم الناس السحر لعلهم يظلمون أنفس بعضهم بعضًا، وكان هو نفسه سهم الحسد والغل والكره الذي يصيب المحسود".

ومن تحت الأرض برزت نار الهوى، ومع ظهورها تحرك الحراس والمساجين مرة أخرى، في البداية تعلقت بها أنظارهم، ثم أخذوا يتمايلون مع لسان لهبها الذي يتراقص يمينًا ويسارًا؛ ومع إحكام سيطرتها عليهم بدأت قوى "خالد" تخور، انفصل فجأة عن النار لسان من اللهب الأصفر ضرب صدره فترنح وسقط على الأرض.

سقط ممددا على ظهره يلتقط أنفاسه في صعوبة، والبرودة تسري في قلبه ونفسه، وخدر يسري في بدنه ويسجن إرادته، حتى أصبح لا يستطيع أن يحرك إصبعًا واحدًا من أصابع يده أو قدمه.

ثم سمع الصوت يأتي من بعيد وكأنه في حلم، يطلب منه في إلحاح أن يتغلب على ما به ويحرك جسده.

ثم بدأ الصوت يصرخ داخل عقله: "قاومها.. استخدم إرادتك وتخلص من سيطرتها عليك".

لكنه لم يقوَ على الحراك، بدا أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل.

ثم برز للشيخ جناحان من النور، طار بهما في اتجاه "خالد" واخترق صدره، وانقطع اتصال لسان النار به لحظة تحرر فيها "خالد"، فشهق في قوة قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا أعقبه بزوغ شعاع نور من صدره.

قام بصعوبة، ثم تحرك ببطء في اتجاه النار وصدره ما زال يُشع النور، كلما اقترب منها أكثر كان النور يزداد سطوعًا، ثم اخترق النور النار وحدث انفجار عظيم، أطاح بكل شيء من حوله، حتى أنه أطاح بـ"خالد" نفسه الذي طار عاليًا قبل أن يقع على ظهره مغشيًّا عليه.

لم يدر "خالد" كم من الوقت قد مر وهو على حاله قبل أن يفيق، هبَّ واقفًا على قدميه، وأخذ يتلفت حوله في دهشة.. لقد اختفى الجميع من حوله، لم يبقَ أحد

إلا الجواد الذي صهل في قوة، فمد يده حول عنقه، وأسند رأسه عليه لحظات يلتقط فيها أنفاسه.. ثم بدأ الجبل يهتز أسفل قدميه، كان الجبل على مشارف الانهيار؛ فاعتلى ظهر الجواد وطار به بعيدًا.

طار الجواد مبتعدًا عن الجبل حيث وُجِد سجن التقاء السماء بالأرض، ثم وقف في الهواء يرفرف بجناحيه، و"خالد" يراقب الجبل وهو ينهار كما انهار الجبل الآخر قبله.. صهل الجواد ثم مال بجسده في الهواء وانطلق بأقصى سرعة.

الجزء الثالث

الكتاب المبين

افترقوا بعد أن كانوا أمة، لم شملهم واجمعهم على الكلمة

الفصل الثامن والعشرون

طار الجواد بحمله مبتعدًا عن الجبل الذي ينهار من خلفهما، ثم توقف في الهواء على مسافة منه، التفت "خالد" يتأمَّل المكان الذي حوي منذ دقائق معدودة جبلًا عظيمًا، بلغت قمته السماء، وغاص البناء الوحيد القائم أعلاه بداخلها، ثم أشاح بوجهه عنه وتطلع أمامه، وانطلق الجواد يشق السماء مرة أخرى.. هجمت على عقله الأسئلة تباعًا، حاول جاهدًا أن يطردها بعيدًا فلم يستطع؛ إنها تطرق باب عقله بقوة هائلة تكاد معها أن تقتلعه وتدلف عنوة.

وكعادته أخذ يكرر المعلومات والأسئلة في عقله قبل أن يعيد صياغتها وترتيبها: "سجن التقاء السماء بالأرض.. ما هذا الاسم العجيب؟! أهو رمز ما؟"، ثم برقت عيناه وغمغم بصوت خافت لا يكاد يسمعه هو نفسه: "آه، هكذا إذًا.. إن الجزء الوحيد الذي تلتقي فيه السماء بالأرض هو النفس، حيث تلتقي الروح بالجسد، لقد كنت سجين نفسي، لكن لماذا؟ وما الفائدة من معرفة كل هذه الأمور عن تركيب الروح والنفس؟"، ثم زفر بقوة وقال: "أشعر أني أحيا حياة مختلفة؛ حياة عجيبة تبدو غير حقيقية وغير منطقية من جهات كثيرة، لكنها في نفس الوقت تحوي كل الحقيقة وكل المنطق، الصوت علمني الكثير عن الروح والنفس".

ضاقت عيناه وهو يفكر بعمق، ثم قال: "الصوت! ما هو؟ وما حقيقته؟ وما الفرق بينه وبين شيخ النور؟"، برقت عيناه وابتسم، ثم قال ببطء: "إن الصوت

بالنسبة للجن كشيخ النور بالنسبة لي، هو من يعلمهم ويساعدهم في عالمهم.. مهلًا! كيف لي أن أسمعه وأحاوره؟! أنا إنسان ولست بجان!".

عاد للوقوع في أسر الحيرة مرة أخرى، ثم ألح على رأسه سؤال منطقي آخر فغمغم: "كيف يختفي جدي فجأة، ثم يظهر فجأة؟"، تنهد، ثم ردد ما يجول بعقله: "إن السيف واللفافة ملكًا لجدي فهو من أعطاني إياهما، يبدو أنهما بطريقة ما إرث عائلي".. ثم زفر مرة أخرى؛ وقد ازدادت حيرته عندما وصل بتفكيره إلى تلك النقطة، وتمتم: "لماذا كل هذا الغموض؟ أهو غموض أم..؟"، أومأ برأسه علامة الفهم، ثم قال بصوت عالٍ: "هي رموز ودلالات وليس غموضًا، مفاهيم يجب أن أصل إلى معانيها وأترجمها".

كان صوته هذه المرة عاليًا مما جعل الجواد يتوقف في الهواء مرة أخرى ضاربًا إياه بجناحيه، ثم حرك رأسه والتفت إليه وأطلق صهيله المعتاد، مما جعل "خالد" يتلفت حوله ليرى أين أخذه هذه المرة، لكنه كان لا يزال يحلق عاليا في السماء؛ أصابته الحيرة فسأل على الفور: "لماذا توقفت هنا يا صديقي؟ ما الذي تتوقع حدوثه في هذا الموضع من السماء؟!"

صهل مرة أخرى ولكن بصوت أعلى كأنه يستنكر ما يقوله "خالد"، والغريب أنه قد فهم ذلك وقال: "أه، على غير العادة، أنت تنتظر مني أن أخبرك أين نذهب، أليس كذلك؟".. ضرب الحنين أوصاله فجأة فشرد ببصره بعيدا متمتمًا بصوت خافت: "أمي الحبيبة، كم اشتقت إليكِ!" ثم مال على أذن الجواد وقال في حماس مفاجئ: "خذني

إلى الديار أيها الصديق، دعنا نذهب إلى حيث توجد أمي"، صهل الجواد علامة الفهم، وانطلق في سرعة وقوة كعادته.

هجم على عقله سؤال آخر، طرد البقية كلَّها وبقي هناك وحده يحتل المشهد كله: "كيف تبدو الديار الآن؟"، فمع المتغيرات الكثيرة والسريعة من حوله، هيأ "خالد" نفسه لرؤية بعض التغيرات التي ربما طرأت على الديار بعد انهيار الكهوف والجبل.

مرت فترة والجواد يشق الهواء بسرعته المعتادة وراكبه شارد الذهن، ثم أفاق من شروده على الجواد الذي يهبط في هذه اللحظة بسرعة عالية مما يُشعره بخفة وزنه، يخترق الهواء الذي يَضرب جسده بقوة تكاد أن تطيح به من أعلى ظهره، ويرتطم بوجهه فيُغمِض عينيه رغمًا عنه، ثم توقف الجواد، فتح "خالد" عينيه ليرى أين توقف به.

توقع أن يرى أي شيء غير الذي يراه الآن؛ لم يهبط الجواد على الأرض لكنه توقف على ارتفاع قليل منها، مما أتاح له فرصة رؤية المشهد من علٍ، تملكته الحيرة الممتزجة بالدهشة وهو يتطلع إلى ذلك المكان الجميل، حتى أنه غمغم بينه وبين نفسه: "هي المرة الأولى التي يخطئ فيها الجواد في الذهاب إلى مكان ما! فليس من المعقول أن تكون هذه الأرض هي دياري".

رأى على مرمى البصر أرضًا منخفضة تكسوها المروج الخضراء الجميلة، ويشقها من منتصفها تقريبًا نهر ذو مجرى متعرج، مياهه زرقاء صافية، وعلى مساحة واسعة تصطف على جانبيه الخيام، بدا المشهد بديعًا بحق، مما جعله يحدق

فيه مشدوهًا.. مرت اللحظات وهو على حاله، ثم تمالك نفسه أخيرًا، ابتسم ومال على أذن الجواد هامسًا: "لقد أخطأت في هذه المرة يا صديقي، لا يمكن أن تكون هذه الديار الجميلة دياري".

خرج صوت الصهيل من الجواد قويًّا، فاتسعت ابتسامة "خالد" وعلا صوته قائلًا: "لا، لا يمكن، ليست هي، وعليك أن تعترف بخطئك، ثم ضحك بصوت عالٍ.. صهل في عناد، ثم طار بمحاذاة النهر أفقيًّا، حتى وصل إلى ما بدا لـ"خالد" أنه منبع النهر، ثم توقف في الهواء مرة أخرى.. كان ماء النهر يخرج من عين كبيرة متدفقًا في قوة إلى أعلى قبل أن ينساب في مجراه.

لكن "خالد" لم يلقِ بالًا للمشهد هذه المرة؛ لقد انصب اهتمامه على شيء آخر جعله يعقد حاجبيه، وهو يتطلع إليه في حيرة؛ ذلك أن حواف عين الماء نفسها وجدرانها تتكون من صخور حمراء وسوداء ويحيط بها من قمتها ما يشبه الثلج.. تمتم بينه وبين نفسه: "لا يمكن! أهي نفس العين التي كانت بها نار الحمرة؟!"

وقبل أن يسترسل في أفكاره صهل الجواد ثم تحرك فجأة صوب مجموعة صغيرة من الخيام المَضروبة خلف العين، بعيدًا عن البقية.. هبط على الأرض خلف واحدة من تلك الخيام. وما أن ترجل "خالد" عن ظهره حتى طار بعيدًا.

الفصل التاسع والعشرون

ابتسم "خالد" متعجبًا من جواده الطائر الذي ينسى دائمًا أن يودعه قبل أن يرحل، كان يدور في حذر حول الخيمة عندما وقع بصره عليها، امرأة عجوز تقوم بتنظيف بعض الأواني في الخارج.. كاد قلبه أن يحطم ضلوعه ويقفز خارج صدره ويهرول إليها؛ مع الفرح العارمة التي انتابته، تطلع في سعادة إليها، ثم مسح دموعه التي انسابت على خديه قبل أن يفتح فمه ويقول بصوت متهدج: "أمي!".

التفتت إليه، وتسمَّرت في مكانها، لم تتحرك أو تبدِ أيَّ رد فعل والإناء يقع من يديها على الأرض، اقترب منها أكثر وظهر وجهه لها جليًّا، تطلعت إليه في صمت ودموعها المنسابة على خديها تنافس النهر في سرعة جريانه، ثم قالت في لهفة: "خالد، ابني!".

انطلق مسرعًا إليها وفردت هي ذراعيها، وفي لهفة ألقى بنفسه بين ذراعيها وأسند رأسه على صدرها، ثم علا صوت بكائها وهي تحتويه بين ذراعيها في شوق، مرت بضع لحظات من الصمت إلا من صوت بكاءها، ثم قالت بصوت متهدج:

- "خالد"، كنت أعلم أنك ستعود إلي.

أزاح رأسه، ومد يديه يمسح دموعها، وقال بصوت غلب عليه التأثر:

- لقد وعدتك بالعودة يا أمي، وها أنا ذا.

جذبته من يده بلهفة وقالت:

- **هيَّا، ادخل.**
- **دلف معها إلى الخيمة، قالت بصوت غلب عليه الحماس:**
- **أخبرني يا بني، كيف حالك؟ وما هي أخبارك؟**
- **التفت إليها والابتسامة تغطي وجهه، هم أن يفتح فمه ليتكلم لكنه لم يفعل؛ لقد بادرته قائلة بنفس الحماس:**
- **جوعان؟ يوجد بعض الطعام.**

علت وجهه ابتسامة رقيقة ثم قال:

- **أنا لست جوعان، اجلسي وارتاحي.**

جلس على أريكة صغيرة، وجلست أمه بجواره، يزين وجهها ابتسامة عذبة، فسألها:

- **أخبريني بما حدث بعد أن تركتك في منزل العمالقة؟**

- **تقصد بعد أن سلمت نفسك إليهم لكي يتركوني أذهب.**

ابتسم لها ثم أومأ برأسه، فابتسمت بدورها وقالت:

- **كانت الدموع تغمر عيني وأنا أتطلع إلى مشهد العربة التي تبتعد بك حتى اختفت من أمامي، فجلست أبكي في ألم وحسرة، لكن بعد فترة لم أعد أسمع أي**

صوت من حولي؛ فقررت أن أخرج وأرى ماذا يدور هناك.. لم أجد في الخارج أيَّ مخلوق، وقفت في مكاني لا أدري ماذا أفعل.. سمعت فجأة الصوت المميز لعربة تجرها الجياد، التفت إليها في لهفة وقلبي يرقص فرحًا؛ لقد ظننت أنها نفس العربة التي أخذتك بعيدًا وقد عادت بك مرة أخرى.. اقتربت العربة رويدًا رويدًا.. ثم سمعت صوت جدك الذي كان يقودها وهو ينادي عليَّ، أوقفها أمامي وأشار إلي بالركوب، وانطلق بها مسرعًا، جاء بي إلى هذه الخيمة، وطلب مني أن أمكث فيها حتى تعود أنت.

صمتت لحظات تتأمل وجهه قبل أن تكمل:

- وقد عدت، يا بني.

أسرع يقول:

- لكن أين هو جدي الآن؟ وكيف تغير المكان وأصبح على هذه الحال؟

- لقد أصابتني الدهشة أنا أيضا حين أتى بي جدك إلى هنا، فسألته نفس سؤالك، لكنه لم يجِبني واكتفى بابتسامة غامضة، وأنا حقًا لا أعلم أين هو الآن.

تذكرتْ شيئا ما فتوقفت عن الكلام، ثم نظرت إليه قائلة ببطء:

- وإن كان قد ترك لك هدية ورسالة.

سمع "خالد" صوت صهيل جواد يأتي من خارج الخيمة، فأسرع خارجًا وهو يظن أن جواده الطائر قد عاد، لكنه اندهش عندما اصطدمت عيناه بجواد فتي أسود.. لحقت به أمه وقالت:

- إنه الأدهم، هدية جدك لك.

ألقى "خالد" على الجواد نظرة طويلة، ثم ابتسم وقال:

- هدية جميلة، ومقبولة.

اتجه إليه ومسح على رأسه بيده، والجواد يبدي علامات الرضا ويصهل في قوة.. ضحكت الأم وقالت:

- يبدو أنه قد أحبك.

- ولكن أين الرسالة؟

كان يجلس على الأريكة داخل الخيمة يقرأ رسالة جده للمرة العاشرة: "اجمع بين النصفين ولمّ شمْلهما، حررهما من المخاوف وسر بهما في الطريق المستقيم، وفي النهاية، عليك أن تثق بقلبك فهو دليلك".

الفصل الثلاثون

مر وقت طويل وهو جالس في مكانه شارد الذهن، يفكر في أمر الرسالة وما تعنيه، ثم انتبه فجأة وارهف سمعه؛ كان أحدهم بالخارج ينادي باسمه في إلحاح، أصابته الدهشة وتمتم بينه وبين نفسه: "من الذي ينادي علي؟ وكيف عرف بوجودي هنا من الأساس؟"، تحرك بسرعة إلى خارج الخيمة، فاصطدمت عيناه بشخص يقف خارجًا، اقترب منه الشخص وعلى وجهه ابتسامة عريضة ثم قال:

– مرحبا بعودتك يا صديقي العزيز.

– "نجيب"!

تصافحا في حرارة، ثم دعاه "خالد" إلى الجلوس على أريكة أخرى موضوعة أمام الخيمة، جلسا يتبادلان التحايا في سعادة واضحة.. بدت على وجه "خالد" الحيرة ثم سأله:

– ولكن كيف علمت بعودتي، وبوجودي في هذه الخيمة بالذات؟

– لدي مصادري الخاصة.

كان "خالد" يعلم أن "نجيب" يمزح معه، فابتسم دون أن يعلق، وبعد لحظات أضاف "نجيب":

– لقد رآك أحدهم وأنت تقترب من هذه الخيمة، ومع سماعي لبعض الروايات المتداولة على الألسنة من هنا وهناك حول رؤية جواد أبيض بجناحين يهبط من السماء، تأكدت أنه أنت فعلًا، فأسرعت في المجيء.

صمت لحظات وهو يتطلع إلى "خالد" والابتسامة تُزين وجهَه، ثم قال:

– اشتقت إليك بالفعل يا "خالد".

تبادل الصديقان الذكريات والتعليقات في سعادة واضحة.. ثم صمتا فجأة؛ وهما يتطلعان إلى شخص ما يتجه ناحيتها في سرعة، ثم وقف أمامهما مبتسمًا وقال:

– عودة ميمونة يا "خالد".

وقف "خالد" من فوره وصافحه في سعادة قائلًا:

– "مراد"! لقد اكتمل عقد الفريق الآن.

سُرَّ "خالد" لرؤية صديقيه العزيزين، لكنه سرور لم يدم طويلًا؛ لقد لاحظ أن "مراد" يصافح "نجيب" في جفاء واضح، و"نجيب" يرد على جفائه بجفاء مماثل، إلا أنه لم يُرِدْ أن يثير الموضوع في الحال، فاكتفى برسم ابتسامة على وجهه وهو يتحدث معهما.

التفت إليه "مراد" فجأة، ثم قال بجدية واضحة:

- الزعيم يريد رؤيتك.

- الزعيم! أيُّ زعيم هذا؟!

- زعيم طائفتي.

اندفع "نجيب" يقاطعهما قائلًا:

- لقد جئت إليك لأطلب منك أن تأتي معي وتقابل زعيم طائفتي أيضًا، لقد جئتك قبل "مراد"، وعليك أن تقابل زعيمي أولًا.

- لكنني من طلبت منه أولًا.

- وأنا جئت إليه أولًا.

تجهَّم وجه "خالد" وهو يتأمَّل صديقيه غير مصدق لما يحدث، ثم أخذ يتمتم بينه وبين نفسه: "زعيمان وطائفتان!"، ثم تذكر رسالة جده، فعلا صوته فوق صوت صديقيه قائلًا بلهجة حازمة:

- أهدآ، أهدآ.

نظرا إليه والخجل يرتسم على وجهيهما ثم صمتا تمامًا، فأضاف:

- أريد أن أعرف عن طائفتيكما المزيد.

نظر إليه "مراد" ثم قال:

– إن الأمر جد خطير، فنحن على وشك الحرب.. نعم، على وشك الحرب حول من أحق بأن يسيطر على العين.

تطلع "خالد" إليه في استنكار غير مصدق لما يسمعه، وقد أيقن من خطورة الأمر، لكنه تمالك نفسه قبل أن يطلب من "مراد" أن يحكي له كل شيء بالتفصيل ومن البداية.

فقال:

– بعد معركتك مع سيد النار وإطفائك للنار في العين، وقبل أن تغادرنا، قمت أنت بنصيحة الجميع ألا يسجدوا إلا للإله الخالق.

هز "خالد" رأسه، فأكمل "مراد" كلامه:

– فرحنا جميعًا عندما فهمنا الأمر، وتحررنا من استعباد الأسياد لنا، وبالفعل لبثنا وقتًا طويلًا لم يسجد فيه أحدنا إلا للإله الخالق وحده، وفي هذا الوقت، تفجرت المياه العذبة من مكان العين وكونت النهر مما أتاح لنا أن نزرع الأرض، واستقرت الأمور.. عمل البعض في الزراعة، وآخرون في رعي الأغنام.

صمت "مراد" ليبتلع ريقه وطال صمته، مما جعل "نجيب" يقول في حدة:

– تحدث يا "مراد"، أو أكمل أنا.

لكن "مراد" صمت تمامًا؛ فاندفع "نجيب" يقول:

– ثم عدتم إلا ما كنتم عليه، وبدلًا من أن يستعبدنا الأسياد أردتم أنتم استعبادنا.

– بهدوء، أرجوك يا "نجيب".

أنهى "خالد" جملته، ثم نظر إلى "مراد" وأضاف:

– دعنا نفهم الأمر بهدوء.

تكلم "مراد" الذي ضاق صدره في هذه اللحظة وقال:

– لقد خرجت منا مجموعة تدعو إلى تعلُّم السحر.

شرد ببصره لحظات كأنه يسترجع تلك الأحداث في مخيلته، ثم استطرد:

– وكانت حجتهم منع الأسياد من تكرار فعلتهم واستعبادهم لنا.

نظر إليه "خالد" وهو يقول في سخرية واضحة:

– وكيف تعلمتم السحر؟!

نظر "نجيب" إلى "مراد"، وقال بنبرة سخرية:

– أخبره من علَّمكم السحر.

– الأسياد أنفسهم هم من علمونا إياه.

فتمتم "خالد":

- استعنتم بالجن كي يحموكم من الجن!

نظرا كلاهما إليه في حيرة، عبر عنها صوت "تجيب" حين سأله:

- ماذا تعني بالجن؟ هل الجن هذا هم الأسياد؟!

- لا عليك يا صديقي، سأخبركما بكل شيء في حينه.

ثم التفت إلى "مراد" وسأله:

- وماذا حدث بعدها؟

صمت "مراد" ولم يجب على الفور مما جعل "تجيب" يقول:

- بعد أن كان الهدف من تعلمهم السحر هو منع سيطرة الأسياد عليهم، تغير حال بعضهم، وبدأوا يصنعون الأسحار للآخرين مقابل المال وأشياء أخرى.

بدا الأسف واضحًا على وجوه الجميع بما فيهم "مراد"، ثم أكمل "تجيب" كلامه:

- ومع انتشار الضر والأذى من جرَّاء الأعمال والأسحار بدأ يساور البعض الشك في وجود إله خالق بحق، ثم أخذوا يتساءلون عنه وعن ماهيته، وانتشر فيما بينهم الهمس عن حقيقة وجوده.. ثم انتشرت على الألسن بعض الأسئلة: "إن كان الإله الخالق موجودا بالفعل، فلماذا لا يظهر نفسه إليهم؟!".. وكرد فعل لهؤلاء، علت

بعض الأصوات الأخرى التي تقول: "إن الإله موجود بالفعل لكنه غاضب عليهم، ولذلك اعتزلهم وأصبح لا يتدخل في حياتهم".

صمت "نجيب" بعدها، فالتقط "مراد" طرف الحديث، وبأسف واضح قال:

– وبدأ الناس يبحثون عمن يقربهم إليه كي يستعيدوا رضاه، منهم من صنع تماثيل وعبدها، ومنهم من عبد الحيوانات، ومنهم من عاد وعبد الأسياد مرة أخرى وهم ينادون بأحقيتهم للعبادة من دون غيرهم؛ وبرروا ذلك بأن الأسياد هم الأقدر على حمايتهم.

كان "خالد" ينظر إليهما في ذهول والحزن يعتصر قلبه، مما جعل "مراد" يصمت على الفور، فتكلم "نجيب":

– وبمرور الوقت أصاب الندم ذلك النفر الذي نادى بوجوب تعلم السحر.

ثم نظر إلى "مراد" واستطرد:

– وكانت هي البداية لظهور جماعة "مراد".

ظهر الضيق على وجه "مراد" جليًّا، لكن ملامحه لانت سريعا، وحاول أن يبرر لهما ما فعلوه فقال:

– لكنهم ولسبب ما كانوا موقنين من داخل أنفسهم بأن الإله لن يغفر لهم أو يتوب عليهم أبدًا، مما أورثهم ندمًا على ندمهم، وأخيرًا اهتدوا إلى ما يجب عليهم

فعله.. عرفوا أنهم يجب أن يعملوا أولًا ليستحقوا التوبة والعودة إلى رضا الإله مرة أخرى، ومن أجل ذلك، فرضوا على أنفسهم بعض العبادات والأعمال الشاقة.

ضحك "نجيب" بسخرية عندما وصل "مراد" إلى تلك النقطة، مما جعل الأخير يقول له بحدة:

– وماذا عنكم يا "نجيب"؟ هيا أخبرنا.

وبدلًا من أن ينتظر إجابته، تطلع إلى "خالد" واكمل كلامه وقال:

– "نجيب" وطائفته أداروا ظهورهم لهذا كله، وبدلًا من أن يعترفوا بقدرة الأسياد ووجوب الاحتراس منهم، أو يقروا بأهمية العمل والعبادة كطريق لاكتساب رضا الإله الخالق، نادوا بأن الروح أقوى من الأسياد لأن الروح تتصل بروحانيات السماء التي ستحميهم من غدر الأسياد وشرورهم، هم وروحانيات الأرض جميعًا.

ثم خرج صوته ساخرًا وأضاف:

– لقد استعانوا بروحانيات السماء بعد أن تفشى بينهم القول بأن الإله رضي عنهم بالفعل، ولن يغضب عليهم مرة أخرى فهو يحبهم كثيرًا، كما كانوا يتهامسون فيما بينهم بأن الإله أسقط عنهم العمل والعبادة، وتركهم يحيون حياتهم كيفما شاءوا.

كان "خالد" يستمع إليهما في صمت، ثم سأل:

– وهل لكم كتاب تستقون منه عباداتكم وعلومكم يا "نجيب"؟

– نعم، عندنا كتاب البشارة.

وعندما نظر إلى "مراد" لم يندهش عندما أخبره بأن كتابهم هو كتاب الحكمة، فسألهما فجأة وبصوت مليء بالحسرة:

– لكن لماذا يريد زعيماكما مقابلتي؟

نظر "نجيب" إلى "مراد" ثم قال:

– أخمن أن السبب واحد هنا وهناك، فهما يريدان أن يحكِّماك في أمر السيطرة على منبع الماء، ومَن الأحقُّ به.

صمتُ "مراد" أكد لـ"خالد" أنه السبب نفسه الخاص بزعيمه هو الآخر، ضاقت عيناه في تفكير عميق، مرت بضع لحظات من الصمت قبل أن ينظر إليهما ويقول:

– لقد قبلت.

جال ببصره بينهما ثم أضاف ببطء:

– لكني أريد أن ألتقي بكلا الزعيمين في وقت واحد وفي حضوركما، على أن يتم ذلك اللقاء عند العين كمكان وسط بينهما، وأن يكون اللقاء على عين الأشهاد.

حررهم من الظلام وسحر الأفكار وحرر المعتقد من التلبيس والضلال

الفصل الحادي والثلاثون

امتطى "خالد" ظهر الأدهم وانطلق به إلى حيث الاجتماع، بدا الأدهم جوادًا فتيًّا بحق؛ وهو يعدو بسرعة عالية وسط الأراضي الخضراء المنبسطة، مما بعث الأمل في قلبه.. بعد رحلة قصيرة ممتعه قضاها على صهوة الجواد وصل في الموعد المحدد، ليجد رفيقيه قد سبقاه إلى هناك بالفعل.

وكما طلب "خالد"، تواجد بعض الحضور من كلا الجماعتين، ترجَّل، ثم اتجه إليهم وعلى وجه ابتسامة صافية، حيا بها الجميع كما حيا صديقيه.. لاحظ وجود مقعدين مرتفعين عن باقي المقاعد، وُضِع كل منهما قبالة الآخر على جانبين مختلفين من طاولة كبيرة، فخمن أنهما مكان جلوس الزعيمين.

تلفَّت حوله يتطلع إلى المشهد الجميل، لقد وضعوا الطاولة على حدود العين تمامًا، ومع تدفق الماء من أسفلها إلى أعلاها، ثم انسيابه في نعومة بداخل مجرى النهر بدا المشهد خلَّابًا، ظل على حاله حين، ثم لاح الزعيمان يأتيان من بعيد، وخلف كل منهما بطانته، لقد أتيا في نفس الوقت تقريبًا ولكن من جهتين مختلفتين من النهر، وبمجرد أن ترجل الزعيمان عن دابتيهما تحرك كلا البطانتين وجلسا بين الحشود كل في جماعته.

لحق شخص من جماعة "مراد" بزعيمه وكذلك فعل شخص من جماعة "نجيب"، بدا كلا الشخصين متشابهين في الشكل والملبس؛ فكلاهما يرتدي السواد،

وقد حلقا شعر رأسيها تمامًا، وكما خمن "خالد" فقد جلس كل زعيم في ناحية من الطاولة على أحد المقعدين، وجلس الأصلعين كل في مكانه بجوار زعيمه.

حيًّا كلا الزعيمين "خالد" قبل أن ينظر كل منهما إلى الآخر في توتر شديد، وساد الصمت بعدها وطال، مما جعل "خالد" يأخذ المبادرة ويقول:

– شرف لي أن ألتقي بكما، والشرف الأكبر هو ثقتكما بي وتنصيبي حَكمًا بينكما في أمر العين.

وهنا قال زعيم "مراد" بصوت ناعم:

– الشرف لنا، يا "خالد" فأنت غني عن التعريف.

وغمغم زعيم "نجيب" بصوت هادئ:

– الشرف لنا، لكن المهم أن تحكم بيننا بالعدل.

– نعم هو ذا، ولكن الأهم أن ترضيا بحكمي، أليس كذلك؟

قال زعيم مراد:

– لك كلمتي.

– ولك كلمتي.

جال ببصره بينهما ثم قال:

– مَن منكما يرغب في بدء الكلام؟

أشار زعيم "نجيب" إلى خصمه ليبدأ هو، فقام زعيم "مراد" وقال بصوته الناعم: "نحن نرى أننا أحق بالسيطرة على العين؛ فنحن الأصل الذي خرج من بيننا الفريق الآخر، وكما فهمنا من كتاب الحكمة الذي فيه حُكم كل شيء، فنحن نرى أن الإنسان أخطأ في حق الإله الخالق، وعبد الأسياد ونسيه؛ لذا فإن الإنسان غير مؤهل بعد لتلقي الوعد، عندما يحين الوقت ويأتي المنقذ ويجعلنا نحن الأسياد على الأرض".

صمت لحظات تفرس فيها وجه "خالد" ليرى تأثير كلامه عليه، ثم ارتفع صوته فجأة وإن ظل على نعومته وقال: "لذا فنحن نرى أن علينا أن نلتزم الأحكام كلها كما كتبت في الكتاب، وأن نجتهد بعبادة الأجساد في الظاهر لتسمو الأرواح في الباطن.. كما نؤمن بأننا حين نصبح أغنى الناس وأفضلهم، سنكون نحن فقط خلفاء الإله على الأرض؛ ومن ثم سيتحقق الوعد ويأتي المنقذ ويأخذنا لنحيا في السماء بجوار الإله، وعليه فنحن نريد مكان العين لنقيم من حوله معبدًا كبيرًا نعبد فيه الإله ونبكي فيه ونعبر عن ندمنا على تهاوننا ومعصيتنا من قبل، ونقيم فيه تعاليمنا ونذورنا وندعوه أن يحمينا من شرور الأسياد".

صمت بعد خطبته.. فقام الآخر، وبصوته الهادئ قال: "نحن نملك كتاب البشارة المليء بالهدى والنور، يخبرنا أن الإله يحب الإنسان كثيرًا؛ لذا فهو قد سامحه بالفعل على جميع أفعاله ومعاصيه".

ثم تطلع إلى الجمع مبتسمًا في سرور، وقال: "لقد سامحنا الإله، وجاء الوعد بالفعل، ولقد أُنقذت أرواحنا، كما تأكدنا من أننا أحق من غيرنا بأن نكون خلفاء الإله، وكل ما علينا فعله الإيمان بذلك دون الحاجة إلى شريعة أو عمل جسد وعبادة".

ثم التفت إلى جماعته متطلعًا إليهم بودٍّ باد وقال: "حين أتانا الوعد أصبحنا مؤهلين للحياة مع الإله المُحب، الذي يعرف مدى ضعفنا فيسامحنا كلما أخطأنا ما دمنا نُقر بأخطائنا ونعترف بها، إن الأمر هكذا ببساطة؛ لذا فنحن أحق بالعين منهم، ومن يريد أن ينضم إلينا فليفعل.. نحن نريد أن نقيم معبدًا لمناجاة الإله والتعبير له عن مدى حبنا وشكرنا له على إنقاذ أرواحنا، والاعتراف فيه بأخطائنا، وأيضا ليكون المكان الذي تتنزل عليه البركة وتأتيه روحانيات السماء التي تباركنا وتحمينا".

ابتسم، ثم جلس بهدوء في مكانه، نقل "خالد" بصره بين كلا الزعيمين مندهشًا، ثم تكلم وقال:

– ولكن لماذا مكان العين بالذات؟

قال زعيم "مراد" مستنكرًا:

– السبب واضح وجليٌّ؛ إنه المكان نفسه حيث هزمت أنت السحر وأطفأت النار، إنه المكان الذي يتدفق منه الماء، إنه المكان الموعود.

وقال الآخر:

– إنه مكان مُبارك.

صمت "خالد" طويلًا وهو يتطلع إليهما غير مصدق لما يقولانه، ثم خفض بصره، وأطلَّ من عينيه الحزن، قرأه "نجيب" ولاحظه "مراد".. ثم رفع عينيه وقال بصوت تشوبه الحسرة: "كيف تصل بكم الرغبة في أمر ما إلى حد التناحر والتنازع فيما بينكم؟ حتى توشك أن تقوم بينكما حرب بسببه!".

صمت مرة أخرى مفكرًا في أمر ما، هب واقفاً ونقل بصره بين الزعيمين، ثم قال: "لكن لماذا بدلتم المكتوب في الكتابين؟".

فغر جميع الجالسين أفواههم ولأسباب مختلفة دون أن يتفوه أحدهم بكلمة، ثم تجرأ "مراد" على الكلام فقال: "لم يغير زعيمنا شيء من كتاب الحكمة، أم أنك تقصد الطائفة الأخرى؟".

تحدث "نجيب" في سرعة: "نحن لم نغير شيء من كتاب البشارة".

بدا على وجه "خالد" الصدق عندما نظر إلى صديقيه وقال: "لقد بدَّلا المكتوب في الكتابين بالفعل".

وأسقط في يدي الجميع، فالتفت "نجيب" إلى زعيمه يسأله في حدة مفاجئة: "هل بالفعل بدلت المكتوب؟".

أراد زعيمه أن يتكلم وينفي تلك التهمة عن نفسه، لكن الكلام تحشرج في حلقه حتى أنه سعل في شدة، وبعد أن هدأ سعاله صمت ولم يتكلم، والذنب يطل من

عينيه جليّا.. هو نفس ما بدا في عيني الآخر، دفن "نجيب" وجهه بين يديه غير مصدق، وبدا على "مراد" الذهول.

نظر "خالد" إلى الرجل الأصلع الجالس بجوار زعيم "نجيب"، وقال: "أستحلفك بالإله الخالق أن تخبرهم الحقيقة".

نظر إليه الأصلع نظرة رجاء وبدا على وجهه التردد واضحًا، فهب "نجيب" واقفا ثم قال: "أخبرنا الحقيقة يا رجل الدين".

تعالت من حولهم الأصوات وهي تنادي رجلَي الدين بأن يقولا الصدق، تطلع رجل دين طائفة "نجيب" إلى رجل الدين الآخر في توتر، ثم نظر إلى "خالد" شزرًا وقام واقفًا في مكانه وقال: "لقد فعلنا الصواب".

علت أصوات الاستنكار من حوله مما جعله يصمت في الحال.. أشار "خالد" إليهم بيده ليهدؤوا ويعطوه الفرصة، لكن الرجل لم ينتظرهم، وفي اندفاع ينم على مدى إيمانه بما سيقول علا صوته: "نعم، لقد فعلنا".

ثم التفت رجل الدين الجالس بجوار زعيم "مراد" إلى "خالد" في تحدٍّ وقال:

– أنت لم ترَ مقدار الخوف الذي ملأ قلوب الناس، لقد رأوا بالفعل ما يستطيع الأسياد القيام به.

– تقصد الجن والشيطان، أليس كذلك؟

ضاقت عيناه وهو ينظر إلى "خالد" مبهوتًا، ثم صمت بعدها تمامًا.. علت الهمهمات من هنا وهناك، الجميع يسأل بعضهم بعضًا عن ماهية الجن والشيطان، التفت "خالد" إلى صديقيه، ثم انتبه إلى نفس رجل الدين الذي اندفع في هذه اللحظة يكمل كلامه:

– نعم، فعلناها نحن أيضًا، ولسببين؛ الخوف الذي ملأ القلوب، خوف لم تستطع أن تزيله التعاليم والعبادة، الخوف من أن نعود إلى الاستعباد والذل والمهانة، لقد ارتأينا في وقتها أن نخبرهم بأن الكتاب يقول بأنهم غير مؤهلين بعد للحياة الأبدية؛ كي نزرع في نفوسهم على الدوام محاولة إصلاح أنفسهم.

قاطعه "خالد":

– لقد تم ذلك كله بعد أن تعلمتم السحر، أليس كذلك؟

طأطأ رجل الدين رأسه وقال:

– بلى، وهذا هو السبب الآخر، حين حاولنا تعلم السحر من الجن والشيطان، فتحنا لهم بعض البوابات بعد أن كانت قد أغلقت.

علا صوته قائلًا:

– ألا ترى لماذا نجتهد في العبادة؟ ألا ترى لماذا نريد العين بشدة؟

ثم قال بصوت حاد والدموع تلمع في عينيه:

– إن لم نستطع أن نستميل الجن والشياطين ونستخدمهم، فلا بدَّ أن نحمي أنفسنا منهم حتى يأتينا الوعد.

كان "نجيب" ينظر طول الوقت إلى زعيمه ورجل دينه في انتظار أن يسمع تبريراتهما أيضًا، ففهم زعيمه ذلك، وبمجرد أن انتهى رجل دين "مراد" من كلامه وجلس، قام رجل الدين الآخر وبدأ يتكلم: "على العكس منهم، فنحن أردنا أن نطمئن أتباعنا ونخبرهم بأنهم مُحصَّنون، نخبرهم بأن الوعد قد أتاهم بالفعل وتم إنقاذهم، نخبرهم بأن يتطلَّعوا إلى روحانيات السماء فهي من ستباركهم وتحميهم من الجن والشياطين".

قال خالد يترجاه:

– أستحلفك بحق الإله أن تقول الصدق، هل كانت حقًّا تحميكم دون أن تطلب منكم أن تفعلوا أيَّ شيء في المقابل؟

نظر إليه رجل الدين هذا نظرة طويلة ثم خفض رأسه وقال:

– في البداية، كانت هذه الروحانيات تحمينا بالفعل دون أن تطلب منا أي شيء في المقابل، وبعد فترة بدأت تطلب منا أن نفعل بعض الطقوس والنذور، وكنا نفعل ما تطلبه منا بعد أن نصيغه ونقوم بوضعه في الكتاب حتى يصبح جزءًا منه.

نقل رجل الدين بصره بين الجميع، فجأة قال بصوت حاد:

– فهم في النهاية ملائكة.

ظلَّ "خالد" صامتًا يستمع إليه في تركيز حتى قال عن هذه الروحانيات بأنها من الملائكة، فأشار إليه بيده يطلب منه عدم الاستمرار في الكلام ليوضح:

- هؤلاء ليسوا ملائكة، بل روحانيات تسكن الكواكب السيّارة، لقد قابلت نفرًا من الملائكة من قبل، وهم من أخبروني بأمر روحانيات الكواكب.

وصمت الجميع من هول المفاجأة، نقل "خالد" بصره بين كلا الزعيمين، ثم قال:

- لقد ظلمتما نفسيكما قبل أن تظلما الناس من حولكما.

تعالت بعض الأصوات التي تطالبه أن ينطق بحكمه الآن، لكنه استوقفهم بيده وقال بنبرة هادئة:

- ليس بعد، أحتاج إلى وقت كاف للتفكير قبل اتخاذ القرار المناسب.

الفصل الثاني والثلاثون

هناك، وسط الحشود، اندس أحدهم بين جماعة مراد محاولًا قدر المستطاع أن يخفي نفسه عن عيني "خالد"؛ اخفي وجهه كله عدا عينيه اللتين تفضحانه والكره يطل منهما، يتطلع إليه بوجهه الملثم وقد اتخذ قراره بالفعل، سوف ينجح هذه المرة فيما فشل فيه من قبل، سوف يقتل "خالد".

غادر "خالد" الاجتماع على عجل، ثم قفز يعتلي ظهر جواده الأدهم، وانطلق به عائدًا إلى خيمته، وانطلق الملثم خلفه.

انطلق الأدهم براكبه الذي بدا شارد الذهن؛ يفكر في الاجتماع وما دار فيه، يفكر في أمر الزعيمين ورجلَي الدين اللذين حرفا الكتابَين، ثم تذكر جده والرسالة، وتمنى لو كان جده معه الآن؛ فيأخذ نصيحته ويعرف منه ماذا يجب عليه أن يفعل.. بقى "خالد" على شروده فلم يشعر بالملثم الذي اقترب بجواده من خلفه مستلًا سيفه من غمده، ولا وهو يدنو منه في سرعة شاهرًا إياه عاليًا؛ ليهوي به على رقبته من الخلف، كان على وشك أن يضربها بالفعل لولا صوت "نجيب" الذي صك أذن "خالد" وهو يصرخ محذرًا إياه.

كل ما رآه "خالد" وهو يلتفت خلفه نصل سيف يهوي على رقبته، وبحركة تلقائية خفض رأسه مما جعله يتفادى نصل السيف الذي ضرب الهواء، فأطلق الملثم صرخة غضب عالية قبل أن يحاول طعنه هذه المرة، لكن "نجيب" أخرج قوسه وأطلق

منه سهمًا، أصاب الملثم في ظهره، وألقاه من على صهوة الجواد الذي أصابه الفزع فأكمل عدوه بمفرده مبتعدًا، ومن خلف "نجيب" ظهر "مراد" الذي يمتطي جواده بدوره.

أوقف "خالد" الأدهم وقفز من فوقه وجرى مسرعًا في اتجاه الملثم الذي يرقد على الأرض.. اقترب منه في حذر قبل أن ينحني عليه، ثم مد يده وهز كتفه في قوة، لكن الملثم كان مغشيًّا عليه، وصل إليه صديقاه في هذه اللحظة، تطلع إليهما في امتنان واضح، وقبل أن يقول أية كلمة شكر، انحنى "مراد" ومد يده وأزاح اللثام عن وجهه الرجل، وشهق الجميع وقالوا في قت واحد:

- "سامر"!

علا صوت "مراد" قائلا بحيرة:

- أخي "سامر"!، لا يمكن، لا يمكن، لكن لماذا؟ لماذا؟!

تسمر بعدها يلتقط أنفَاسَه بصعوبة، مرت لحظات هدأ فيها قليلًا مما جرأ "نجيب" على التطلع إلى عينيه وعلى وجهه الأسف، وبكلمات متلعثمة قال:

- لقد كان يغطي وجهه كله، لم أقصده بالذات، لكنه كان على وشك أن يقتل "خالد" من الخلف.

تجاهله "مراد"، والتفت إلى "خالد" قائلًا بصوت مبحوح:

- لماذا يريد "سامر" أن يقتلك؟

نظر إليه "خالد" دون أن ينطق بكلمة واحدة، فضاقت عيناه من أثر الحيرة وقال:

- وكيف تعرف أخي "سامر" من الأساس؟

ثم أخرج سيفه فجأة من غمده وشهره في وجه "خالد" مكملًا:

- أخبرني كل شيء الآن وإلا قتلتك.

تحرك "نجيب" وأزاح ببطء يد "مراد" التي تحمل السيف بعيدًا، ثم تحرك "مراد" فجأة وأعطاهم ظهره، وأعاد سيفه إلى غمده مرة أخرى، ودون أن يلتفت إليهما قال:

- لقد نطقت باسمه بمجرد أن أزحتُ اللثام عن وجهه.

- اهدأ، وسأخبرك بكل شيء، لكن الأهم الآن هو علاج "سامر"، دعنا ننقله إلى الخيمة ونحضر له طبيبًا.

هدأ "مراد" قليلًا، ثم بدأ يستعيد رشده، وقال:

- إنه من هاجمك وأراد قتلك.

تعاون الجميع على حمله حتى وضعوه على ظهر جواد "مراد"، الذي ركب معه ليعود به إلى خيمته ويعالجه بين أهله، قبل أن يتحرك التفت إلى "خالد" وقال:

- اذهبا إلى خيمتك وانتظراني هناك، ولا تقولا أية كلمة قبل أن ألحق بكما.

الفصل الثالث والثلاثون

اندمج "خالد" ونجيب في حديث ودي وهما يجلسان على نفس الأريكة خارج الخيمة، يتذكران بعض الأمور من طفولتهما، وكيف كان الجد يقص عليهما القَصص، فسأله "نجيب":

- لكن أين جدك الآن؟

- لا أدري حقًّا.

شعر "نجيب" بالذنب بعد سؤاله هذا؛ خصوصًا وقد اكتسى وجه "خالد" بالحزن وصمت تمامًا.. مرّ بعض الوقت قبل أن ينضم إليهما "مراد" الذي كان يسرع الخطى وهو يقترب من الأريكة ليجلس معهما، وبمجرد أن فعل سأله "خالد" بلهفة حقيقية:

- كيف حال "سامر" الآن؟

- سيكون بخير، لم أتركه حتى اطمأننت عليه.

ثم نظر إليهما وقال:

- إياك أن تكون قد بدأت الكلام عن الأمر في غيابي وإلّا!

قاطعه "خالد" وهو يبتسم ويقول:

- لا، لم أفعل.

ثم بدأ يقص عليهما القصة كلها، وهما يستمعان إليه في تركيز واضح، وتعابير وجهيهما تتفاوت بين الاندهاش وعدم التصديق وأحيانا الشرود.. لم يجدا ما يعلقان به بعد أن أنهى حديثه، هز "مراد" رأسه فجأة وقطع الصمت الذي خيم عليهم وقال:

- أصدقك في أمر "سامر"، وإن كنت لا أفهم كيف تواجد معك في السجن هناك!

صمت بعدها كأنه لن يضيف شيئًا آخر إلا أنه التفت فجأة إلى "خالد" وقال:

- لقد كان يكرهك حقًّا، يتحدث عنك بالسوء دائمًا، ويرى أنك مدعٍ للأخلاق والورع، كما كان يقول إن بطولاتك زائفة وأنك في النهاية تبحث فقط عن الشهرة.

وصمت بعدها، وكالعادة لم يطل صمته فعاد يقول:

- لقد جرحه "نجيب" دفاعًا عنك، وانتهى الأمر، ولا ضغينة بيننا.

ثم نظر إلى "نجيب" وهو يبتسم مضيفًا:

- ولا بيننا.

- لا تدري كم سرني كلامك هذا؛ فأنا لا أريد أن يكون هناك أي كراهية بيني وبين أي أحد خصوصا أنت و"مراد".

كان "خالد" يتحدث بصدق حقيقي، مما جعل رفيقيه ينظران إليه بود ويبتسمان ابتسامة صافية، ثم صمت الجميع.. قطع "مراد" حبل الصمت وسأل:

– ولكن أين رسالة جدك التي تركها لك؟

دخل "خالد" الخيمة ثم عاد بورقة مطوية، فضها وناولها إلى "مراد" الذي قرأها بصوت عالٍ: "اجمع بين النصفين ولمّ شملهما، حررهما من المخاوف وسر بهما في الطريق المستقيم، وفي النهاية، عليك أن تثق بقلبك فهو دليلك".

قال "نجيب" في حيرة:

– ماذا يعني جدك بـ "حررهما من المخاوف"؟

– عندما قرأت الرسالة أول مرة لم أفهم منها شيئا، لكن بعد أن قابلتكما وبعد الاجتماع مع الطائفتين، أستطيع أن أقول أن المقصود بالنصفين هنا كلتا الطائفتين.

ثم قال "نجيب":

– والمخاوف هي ما كان يتحدث الزعيمان عنها.

قال "مراد" في حماس:

– نعم، فرجل ديني ذكر أمر فتحهم البوابات المغلقة أو ما إلى ذلك.

– ورجل ديني تحدث عمن كان يظنهم الملائكة حين قاطعه "خالد" وأخبره أنهم روحانيات الكواكب، كان رجل الدين يقول فيما معناه: "إن هؤلاء الروحانيات ولكي يحموهم ويباركوهم فهم يطلبون منهم في المقابل أن يفعلوا بعض الأشياء التي لم يستطيعوا أن يرفضوها".

قام "خالد" يتحرك ذهابًا وإيابًا، قبل أن يتوقف وينظر إليهما قائلًا بحماس مفاجئ:

– هذه هي مخاوفهما التي لابد أن أخلصهما منها.

ثم صمت قليلا أطلت الحيرة من وجهه، ثم قال:

– ولكن كيف أفعلها؟ كيف؟!

الفصل الرابع والثلاثون

ظهرَ "خالد" يسير بقوة وثبات مغادرًا كهف ما، ويسير من خلفه اثنان، يتحركون جميعًا في همة ونشاط وسط ضباب يغطي المشهد كله في الخارج، لكن قلب "خالد" كاد أن يتوقف؛ حين انتبه إلى أنهم يسيرون فوق جسر ضيق يمتد في السماء.

استعاد رباطة جأشه سريعًا بالرغم من الارتفاع الشاهق، وعاد يسير بنفس الهمة والثبات يتبعه رفيقاه، ألقى بصره بعيدًا يتبين الطريق أمامه، رأى نورًا على مرمى البصر.. ثم بدأ النور في التحرك تجاه "خالد" ورفيقيه، والتقى بهم في نقطة ما فوق الجسر، وقف النور أمامهم وتكلم بكيفية ما دون فم وبصوت غير الصوت، وجه كلامه إليهم جميعًا، والغريب أن "خالد" كان يفهم ما يقول: "إن "خالد" هو الوحيد القادر على أن يضع خريطة الإنقاذ".

ثم وجه كلامه إلى "خالد" خاصة: "لماذا لم تضعها حتى الآن؟ لماذا لم تمنع ضرر بوابات روحانيات الأرض، وضرر أبواب روحانيات الكواكب؟".

ودون مقدمات وجد "خالد" نفسه ورفيقيه على الأرض، وهو يخط خطوطًا كثيرة منها المتعرج ومنها المستقيم، فرفع بصره إليهما قائلاً:

- إنها الخريطة.

ثم شرد ببصره بعيدًا مفكرًا بأمر ما، ومن وسط شروده قال:

- هي أشبه بمعركة الواو.

تغير المشهد مرة ثانية ليجد نفسه وسط الثلوج أمام الكوخ الخشبي مباشرة، جرى مسرعًا يصعد الدرجات الثلاث ليصل إلى بابه ثم دفعه بلهفة، لكن الكوخ كان فارغًا، وفي تردد مد قدمه إلى الداخل وبحث بعينيه هنا وهناك، ثم همَّ بالمغادرة، بينما يدور على عقبيه انتبه إلى شيء يشبه المخطوطة موضوع على الأرض، في نفس المكان المعتاد حيث يجلس الشيخ.

تردد كثيرًا قبل أن يحسم أمره وينحني عليها ليلتقطها، ثم فضها وبدأ يقرأ الكلام المدون فيها بحروف من نور بدءا من العنوان: "معركة الواو.. هي معركة لنيل التحرير من روحانيات الشواغل والموانع والعوائق، من أسحار الضر والأذى.. والتحرر من روحانيات الرصد التي رصدتنا منذ زمن بعيد بهدف السيطرة علينا؛ لكي يوجهوا نفوسنا وذواتنا من داخلنا بحسب هواهم هم، بحيث تبدو أعمالنا ومعاصينا وكأنها نابعة منا، فتجلب علينا أعمالنا أسباب السخط والعقاب.. معركة لإعادة ميزان العدل والكيل بحسب العمل، بحيث يكون الميل فيها للرحمة وليس العقاب، معركة تحرير الأفكار من التوجيه بطريق الأوهام والمخاوف.. معركة الربط بين الباطن (و) الظاهر لخلق مجال بينهما تسري فيه الخيرات من الباطن إلى الظاهر والعكس دون عوائق الكيد والسحر والرصد، معركة لتحرير الرابط بين الهوية (و) الصورة، بين الروح (و) الجسد، وجعل ذلك الرابط برزخًا نقيًّا يسير في الاتجاهين في يسر؛ حتى

يسهل علاج عِلَل الروح المرتبطة بالجسد (و) علاج علل الجسد المرتبطة بالروح، ومن ثم تعيش النفس في نعيم السلام بينهما، هي معركة لمِّ الشمل"

وفجأة، بدأ يتسلل إلى عقله صوت ينادي باسمه، ورويدا بدأ ذلك الصوت يصك أذنه في قوة.

فتح عينيه وسمع صوت "نجيب" ينادي عليه في إلحاح من الخارج، انتبه في هذه اللحظة إلى أنه ممدد على الأريكة داخل الخيمة، لقد كان في حالة ما أسماها الصوت من قبل "انتقال للوعي"، قام في نشاط فاجأه هو نفسه، ثم خرج من الخيمة، ليجد صديقيه في انتظاره.

****

استقبله صوت لهاثهما، ودون أن يلقي أحدهما السلام، أسرع "مراد" يقول:

- لقد عرفت أين تقع بوابات روحانيات الأرض.

أطل الفرح من وجه "خالد"، وسأله:

- أين هي؟ وكيف عرفت مكانها؟

أجاب السؤال الثاني أولًا وقال:

– كنت أتحدث مع الزعيم، وبدأت أوجه الحديث ناحية هذه الأمر بالذات حتى استدرجته في الكلام، أما عن مكانها ففي كهف عميق خلف الشلال الكبير، حيث يصب النهر ماءه، عند نهاية الأرض.

استمع إليه في تركيز دون أن يقاطعه أو يبدي له أي رد فعل، فالتقط "نجيب" طرف الحديث من حيث انتهى رفيقه وقال:

– النهر ينتهي بشلال عظيم، حيث يصب الماء في باطن الأرض.

أومأ "خالد" برأسه، ثم سأل:

– وكيف سنصل إليها إذًا؟

أُسقِط في يدي "نجيب" و"مراد"، فنقل "خالد" بصره بينهما وهو يضيف:

– نحن لا نعرف مكانها بالضبط ولا مدى عمقها، ولا حتى شكلها أوعددها.

أسرع "مراد" وأجابه:

– هي سبع بوابات، كما قال الزعيم في أثناء كلامه عنها.

اقترح "نجيب" أن يذهبوا إلى مصب النهر ويتبينوا الأمر على الطبيعة، كما اقترح "مراد" أن يأخذوا معهم كمية كبيرة من الحبال، وقد كان.

الفصل الخامس والثلاثون

انطلق ثلاثتهم يشقون الأرض بجيادهم في سرعة وقوة، حتى استحال المشهد في أعينهم إلى لوحة جميلة وإن كانت بسيطة؛ فهي تتكون من لونين فقط بدون تفاصيل للأشياء، اللون الأخضر ومعه أزرق الماء والسماء.

بدا لـ"خالد" أن النهر يمتد إلى ما لا نهاية، وهم بقول شيء ما لرفيقيه، لكن صوت "نجيب" علا فجأة يطالبهم بأن يبطئوا من سرعتهم؛ لقد اقتربوا من نهاية النهر.. ثم انتهت الأرض فجأة.

توقفت الجياد على حافة الشلال وترجلوا عنها، اقترب "خالد" من نهاية الأرض يتطلع إلى أسفل، وأخذه المنظر المهيب؛ الماء يتساقط في نعومة وسرعة إلى عمق السحيق، ومع سقوطه واصطدامه بالماء الراقد في الأسفل، يرتفع جزء من جراء الاصطدام وهو يفور منقسمًا إلى عدد لا نهائي من نقط الماء التي تتناثر عاليًا هنا وهناك، فيعطي لونًا أبيض بجوار الأزرق.

ثم بدأوا يفتشون هنا وهناك لعلهم يعثرون على أي شيء يقودهم لمكان البوابات.. اقترب "خالد" مرة أخرى من الحافة، وانحنى ينظر إلى أسفل.. وفجأة، صك أذنه صوت يناديه من داخل الماء، الغريب في الأمر أن رفيقيه قد سمعاه أيضا يقول: "أقبل ولا تخف، استخدم الحبال، ولكن أقبل وحدك فلن يستطيع رفيقاك الاحتمال".

بعد نقاش طويل ومحاولات من "مراد" و"نجيب" لإثنائه عن الأمر دون نتيجة، اقترحا عليه أن يذهبا معه لكنه رفض متمسكًا بكلام الصوت الذي طلب منه أن يأتي وحده، رضخا له في النهاية.. تعاون الجميع على ربط أحد طرفي الحبل حول رقبة الأدهم، والطرف الآخر ربطوه في قوة حول جسد "خالد" نفسه، بحيث يقوم "مراد" و"نجيب" بعدها بالإمساك بالحبل وإنزال "خالد" بالتدريج داخل الشلال.

همَّ خالد بالنزول، فاستوقفه "نجيب" قائلًا في قلق:

- هل أنت متأكد من رغبتك في اقتحام الشلال بمفردك؟

ابتسم "خالد" ابتسامة خفيفة وقال:

- نعم يا صديقي، دعنا نفعلها.

بدآ في إنزاله في بطء وحذر، وكعادته، أخذ عقله يعمل على تحليل ما حوله، ثم هجم على رأسه سؤال عن ماهية الصوت الذي طلب منه النزول، وإن كان هو نفسه الصوت القديم، فكيف تمكن رفيقاه من سماعه؟ راودته فكرة أن يعود أدراجه مرة أخرى، لكنه لم يفعل بل استسلم إلى رفيقيه وهما ينزلانه.. كانت الحبال على وشك الانتهاء حين سمع "خالد" الصوت مرة أخرى يقول:

- يجب عليك الآن أن تأرجح جسدك إلى الخلف ثم تتركه يخترق ماء الشلال، ولا تخف.

بدا الصوت هذه المرة قريب من "خالد"، فسأله الأخير:

– من أنت أيها الصوت؟

لم يجِبْه إلا الصمت.. أرهف سمعه في انتظار أن يسمع أي شيء آخر، لكنه لم يسمع إلا الصمت، قرر أن يفعل ما طُلب منه، فأخذ يتأرجح بجسده إلى الأمام والخلف بقدر المستطاع ثم تركه يخترق ماء الشلال، وبدون مقدمات سُحب جسده إلى الداخل، ليجد نفسه وقفًا على أرض صخرية سوداء، وأمامه ممر يمتد هبوطًا إلى داخل الأرض نفسها.

سمع الصوت مرة أخرى يقول: "عليك السير داخل الممر".

لم يعد يسأل عن أي شيء آخر، وفي همَّة فك طرف الحبل من حول جسده وسار في حذر شديد، بدا له أن الممر يزداد ظلمة كلما توغل بداخله، لكن همته لم تفتر، ثم بدأ يسمع أصوات غريبة لم يتبين فحواها في البداية؛ لقد بدأت ضعيفة، ثم صارت أقوى وأوضح كلما توغل أكثر.

عقد حاجبيه في ضيق عندما تبينها؛ أصوات ضحكات عالية متصلة تبث الرعب والخوف في النفوس، وما كان يسمعه في البداية هو صداها.. ثم ظهر على يساره باب كبير مصنوع من الصخر ومشرَّعٌ بمقدار الثلث، فرح "خالد" عندما رآه، وقال في نفسه: "أخيرًا سأغلق إحدى البوابات السبع".

أخذته الحمية فتحرك في حماس تجاهه، هبت في وجهه فجأة رياح قوية يصاحبها ضبابٌ كثيف، عمَّ الجوَّ من حوله سريعًا فأصبح لا يرى شيئا، ثم ازدادت سرعة الريح فوقف في مكانه لا يدرى ماذا يفعل، أصبح يستنزف كل قوته في

مقاومتها، فقط ليبقى في مكانه ولا تدفعه في طريقها للخلف.. ثم سمع الصوت مرة أخرى يحفزه ويمنيه بغلق البوابة إلى الأبد، وبالفعل، قاوم الريح بهمَّه لا تفتر، ثم بدأ يتغلب عليها حتى حرك جسده إلى الأمام، ورويدًا بدأ يتحرك مرة أخرى، وأخيرا لمس البوابة، وهم أن يغلقها مستخدمًا إرادته مع القليل الباقي من قوته.. فجأة خرجت من البوابة يد سوداء معروقة، قبضت على يده وبدأت تسحبه إلى الداخل في قوة، والصوت نفسه يضحك بلا توقف.

وسط ذلك الجو المخيف واليد التي تسحبه في قوة، بدأت قواه تخور، وغيبوبة تهجم على عقله في ضراوة، ثم استسلم إلى اليد وهي تسحبه إلى الداخل، وأغمض عينيه والبوابة على وشك أن تبتلعه.. وفجأة، توقف كل شيء؛ ويد ما تقبض على يده الأخرى وتجذبه في عكس الاتجاه.

فتح عينيه مرة أخرى، وفي صعوبة التفت إلى الخلف، فرأى شيخ النور ممسكًا بيده يجذبه إليه في قوة عجيبة، ثم استخدم الشيخ العصا فخرج منها نور ضرب اليد السوداء، وأجبرت صاحبها على ترك يد "خالد"، وأغلق الشيخ البوابة، ثم جر "خالد" إلى خارج الممر حيث كان في انتظارهما الجواد الأبيض المجنح، وما أن ركبا على ظهره حتى ضرب شلال الماء في قوة واخترقه ثم طار إلى أعلى مبتعدًا عن النهر والشلال.

****

ازدادت سرعة الجواد ومع ازديادها اختفت التفاصيل من حوله، ثم هبط أمام الكوخ، ترجل الشيخ من على ظهر الجواد، ثم ساعد "خالد" – الذي بالكاد يفتح عينيه – على الترجل، أسرع به الشيخ يجره خلفه ليدخله إلى الكوخ، ما إن دخلا حتى سقط "خالد" على الأرض مغشيًا عليه.

أخذ "خالد" يستعيد جزءًا من وعيه ثم يعود مغشيًّا عليه مرة أخرى، إلى أن استجمع إرادته وفتح عينيه، وجد نفسه ممددًا على ما يشبه الطاولة والشيخ يشق صدره، ثم أُغشي عليه مرة أخرى.. بعد فترة استعاد وعيه دفعة واحدة.

كان لا يزال مغمض العينين حين بدأ يشعر بجسده ممددًا على الأرض، فتح عينيه قليلًا فرأى بنصف عين الشيخ يجلس بجواره ويضع يدًا على صدره والأخرى على رأسه، ومن حوله يجلس السبعة القصار ممتلئي الجسد، وبعقله الذي مازال مشوشًا استطاع أن يميز بعضًا من كلمات الشيخ الذي يقول لهم: "إن كتاب الفرقان فيه الرحمة والنور، ويحتوي على ذاتية إغلاق جميع أبواب الشرور، فما يحتويه ذلك الكتاب قد أعاد للإنسان صياغة سيادته وخلافته على الأرض، بل أفهمه الغرض من وجوده، وأخبره عن الإله، وحدثه عن الغيب.. هو كتاب احتوى الروحانيات لكنه خرج بها من منطقة المعاني الضبابية إلى حيز التطبيق والعمل.. كما فرق بين أوهام الأهواء والرؤى الشخصية المحدودة وبين الحقائق الكاملة المطلقة، فأعطى منهج للعمل القائم على سلامة المعتقد".

صفى ذهن "خالد" وفتح عينيه عن آخرهما، فتوقف الشيخ عن الكلام، وتطلع إليه مبتسمًا ابتسامته الصافية، مما جعل "خالد" يبتسم له هو الآخر ابتسامة تحمل معاني الامتنان، وتعجب السبعة؛ فقد كانت ابتسامة "خالد" من الصفاء بحيث قاربت ابتسامة الشيخ نفسه.. ثم اعتدل جالسًا على الأرض يسأل الشيخ في حيرة:

- هل كنت أتوهم الأمر أم أنك قد شققت صدري بالفعل؟!

أجابه الشيخ بصوته الهادئ العميق:

- نعم شققت صدرك وغسلت قلبك.

لم يدرِ ماذا يقول ولم يفكر، بل وجد لسانه يسأل من تلقاء نفسه عن الكتاب الذي فيه الرحمة والنور، فأخبره الشيخ بأنه الكتاب الثالث.. هم بسؤاله سؤالًا آخر، لكن الشيخ قاطعه وهو يقول معاتبًا إياه:

- لماذا ذهبت إلى البوابات؟

أضاف الشيخ في سرعة قبل أن يجيب "خالد"، وبصوت حمل معه القلق:

- أعلم أنك ترغب في إنقاذ الجميع، لكنك ذهبت دون استعداد، كنا على وشك أن نفقدك.

- أردت أن أغلق البوابات وأحرر الناس من الخوف.

الفصل السادس والثلاثون

نظر إليه الشيخ نظرة طويلة ثم وضع كلتا يديه على رأسه هذه المرة، فشعر "خالد" بوعيه يغادر جسده في سرعة جنونية قبل أن تهدأ الأمور فجأة.. ليجد نفسه واقفًا بجوار الشيخ على أرض غير الأرض، تبدو مختلفة من أول وهلة، والشيخ يقول: "هكذا كانت الحياة على الأرض قبل خلق الإنسان، عندما كان الجان هم من يعمرونها، لكن الكثير منهم وبسبب طبيعتهم، التي يتحكم الهوى فيها كما علمت، وتعدد أشكال أهواء نفوسهم، وحرص كل زمرة منهم أن يكونوا الملوك المستحقين للخلافة كما استوعبتها عقولهم حينئذ، ذلك لأن مفهومهم للخلافة هي أن تضع فرقة منهم يدها على المُلك دون غيرها كما تخبرهم أهواؤهم.. تقاتلوا وتناحروا، وفي الحرب تظهر حقيقة النفوس جلية، لم يقاوم أي منهم حقيقة نفسه وهواه اللذين يتحكمان فيه، فعصوا الخالق وأفسدوا في الأرض.. ومع حرص الكثيرين منهم على النصر الذي استحوذ علي عقولهم حدث لهم أمر عجيب، لقد ذبلت أجسامهم ومرضت أرواحهم، ثم تحولوا إلى كيانات مظلمة، وبحسب ما كان يتحكم فيهم من الهوى تشكلت تلك الكيانات.. هذا كيان الظلمة من الكبر، وهذا من الشرك والكفر، وهذا من الكره، وهذا من شهوة الطمع، وهذا من شهوة القتل، وهذا من الكذب والمكر، وهذا من حب الفساد والإفساد، فأرسل الإله الخالق ملائكته التي حاربت هذه الكيانات المظلمة وحبست كل فرقة منهم خلف بوابتها، وما بقي من الجن انحصر ملكهم في الخلاء وما إلى ذلك".

كان الشيخ يشرح الأمر لـ"خالد" ومن حولهما تبدو المَشاهد حية تصوِر كل ما يُقال، وكأنهما أصبحا جزءا من الأحداث نفسها.

فجأة عاد وعي "خالد" يسكن جسده مرة أخرى، وفتح عينيه ليجد نفسه في الكوخ مع الشيخ، وقد غادر السبعة إلى حال سبيلهم، عاد شاحب الوجه من هول ما رأى، لكن ذلك لم يمنعه من سعيه الدؤوب لإيجاد الأجوبة التي تلح على عقله، فسأل:

– لكن ما الذي يجعل البوابات تكاد أن تُفتح مرة أخرى؟

أجابه الشيخ بأسى:

– بعد أن حاربت الملائكة هذا الصنف من الجان قاموا بحبسهم في الأرضين السبع، وتركوا هؤلاء الذين بقوا على أشكالهم ولم يتحولوا إلى كيانات مظلمة، تركوهم يعيشون داخل سطح الأرض حيث كونوا ممالكهم، لكن الشيطان لم يحتمل ما حدث بعدها، فبعد زوال حكم الجان كان الشيطان يوقن من أنه سيصبح الخليفة.. أصابته الصدمة عندما أوكل الإله إلى الإنسان بهذه المهمة، فكره الإنسانَ وصمم أن يجعله يقع في الخطيئة ليكرر خطايا الجان نفسها؛ ومن ثم يستحق المصير نفسه؛ فعمد إلى أن يذكي نار الغيرة والكره بين بني الإنسان حتى قتل الأخ أخاه، وهنا لاحظ الشيطان أن البوابة التي تحبس الكيانات المظلمة بشهوة الغيرة قد انفتحت قليلًا فعمد إلى جعل البشر يكررون معاصي الجان نفسها، فعلمهم السحر

ليشركوا ويكفروا وزرع الطمع والجشع والحقد والغل في النفوس ليفتح البوابات بعمل الإنسان نفسه".

أدرك الشيخ من الحيرة البادية على وجه "خالد" ومن شدة انعقاد حاجبيه أن كلامه يحتاج إلى الشرح فأكمل كلامه ولكن ببطء:

– فمثلا حين يستحوذ الطمع على نفس إنسانية، تتمنى تلك النفس الحصول على المزيد والمزيد بأي طريقة كانت، فيفتح ذلك من باب الطمع جزءًا، وحين يحسد الحاسد يفتح جزءًا وهكذا".

تأمَّل "خالد" وجه الشيخ عندما صمت الأخير فجأة، ولاحظ أن الابتسامة الصافية التي تزينه على الدوام قد اختفت ربما لأول مرة، والشيخ يكمل في مرارة:

– النفس الإنسانية في هذه الحال لا تفتح فقط جزءًا من البوابة، ولكنها ومن شدة حرصها تخلق مجالًا يمتد إلى البوابة نفسها، فتستدعي جزءًا مظلمًا منها يكون هذا المجال له سكنًا وأمنا.. نفس الإنسان هي من تستدعيه وتعطيه المجال ليكون الأذى، فيؤذي بحسب صفته من حسد وطمع إلى آخره".

ومع ما سمعه ووعاه من كلام الشيخ، قال في حزم:

– لا بدَّ أن نغلق هذه البوابات إلى الأبد، أيها الشيخ.

أومأ له الشيخ برأسه دون أن ينطق بكلمة واحدة.

بدا على وجه "خالد" الشرود وهو ينظر إلى الأرض، ثم رفع وجهه وقال:

– حدثني أكثر عن كتاب الفرقان الذي يحتوي على الرحمة والنور.

عادت ابتسامته الصافية تزين وجهه وقال:

– هو كتاب يحوي بداخله الشفاء من كل العلل، ليس فقط شفاء البدن، لكن شفاء العقل والنفس والروح، والأهم أنه يحوي شفاء القلب، لأنه لا يخاطب العقل فقط، ولا النفس أو الروح فقط، بل يخاطبهم جميعًا وينفذ إليهم.. يحوي بداخله الأحكام ويحوي الحكمة من ورائها، يحوي النور ويحوي الهدى.

صمت الشيخ لحظات ثم عاد يقول:

– كما أنه يدل على الطريق المستقيم، ويؤمِّن للإنسان حريته من السيطرة عليها؛ بأن يدله إلى عبادة الإله الخالق وحده، كما أنه يحميه من الضر والفساد.

****

طار الجواد بـ"خالد" عائدًا إلى صديقيه عند الشلال، وراكبه كعادته يفكر في كل ما رآه وسمعه، ثم توصل إلى أن الحل يكمن في ما يحتويه كتاب النور والرحمة من حكم وأحكام ونور وهدى، ولكن كيف له أن يحصل عليه؟ وأين يجده؟.. قبل أن يطلب من الجواد أن يذهب به إليه كما فعل من قبل، سمع فجأة صوت أشبه بصوت جده وهو يخاطبه من داخل عقله ويقول:

– فطرتك تحتويه وقلبك يفقهه، بصيرتك تراه وعقلك يعيه، اجعل كلامك يعبر عنه وعملك يسير بك في طريقه المستقيم.

فرح كعادته حين يسمع الصوت يدوِّي داخل عقله، لكن ما قاله الصوت كان من الأهمية حتى أنه جذب كيانه كله إليه في محاولة لفهم معانيه.

اقترب الجواد من الشلال، كان أول من أحس به هو جواده الأدهم، صهل في قوة، ورفع قائميه الأماميين يضرب بهما الهواء، كأنما يغار أن يجد صاحبه وقد اعتلى صهوة جواد غيره، أو ربما يتمنى لو بمقدوره الطيران هو الآخر.. انتبه "نجيب" و"مراد" إلى ما يفعله الأدهم، فقاما من جلستهما على الأرض والدموع ما زالت تغرق وجهيهما؛ حزنًا على ما حدث، فعندما سحبا الحبل إلى أعلى، لم يجدا لصديقهما أي أثر، فظنا أنه قد مات غرقًا.

لم يجدا شيئًا في البداية، ثم صرخ "نجيب" فجأة وهو يقفز فرحًا وينظر إلى الأعلى؛ لقد ظهر "خالد" وهو يطير بجواده الأبيض ويقترب منهما، لم تكد قدماه تلامسان الأرض حتى جرى إليه صديقاه في لهفة، واحتضناه في سعادة، وبينما كانا يمازحان "خالد" طار الجواد الأبيض بعيدًا واختفى.

الفطرة تحتويه والقلب يفقهه البصيرة تراه و العقل يعيه

الفصل السابع والثلاثون

غادر "خالد" برفقة صديقيه منطقة الشلال، ثم ذهب كل منهم إلى خيمته.. لم يلج "خالد" الخيمة على الفور، بل جلس على الأريكة في الخارج، ودفن رأسه بين يديه، ثم رفع وجهه إلى أعلى وشرد بذهنه مفكرًا فيما مرَّ عليه.. خرجت أمه ووقفت أمامه تتأمله في شفقة، ثم جلست بجواره قائلة بصوتها الحنون:

- هوِّن على نفسك، يا بني، فأنت تكاد تقتلها.

نظر "خالد" إليها نظرة طويلة خاوية ثم فتح فمه قائلًا:

- إن الخطر عظيم يا أمي، وأخاف على الناس من الضلال وعدم الإيمان.

- أيُّ خطر يا بني؟ هوِّن على نفسك، إن الحياة في النهاية تسير، هيا أدخل الخيمة.

ثم قامت تسبقه إليها، لكنها وقبل أن تخطو إلى داخلها توقفت والتفتت إليه وقالت:

- لقد أرسل لك الزعيمان مندوبَين يستعجلانك في الرد عليهما.

- وماذا كان ردك عليهما؟

– أخبرتهما أنك سَتحكُم في الأمر غدا.

ثم ابتسمت ودلفت الخيمة، مدد جسده على الأريكة متطلعًا إلى السماء، ثم سمع الصوت في عقله قويا يقول: "لقد اختلفت طريقة الحرب عما كان باختلاف أسلوب الشيطان، عندما فشلت خطتة الرئيسية في الانتقام من الإنسان عن طريق إعادة هيمنة الجان على الأرض واستعباد الإنسان فيها، ولم تأتِ بالثمار المرجوة منها، فكر في خطته الأخرى الجهنمية، استخدم الخبرات التي اكتسبها هو وجنوده من سحر شطر الأجساد والسيطرة عليها، وكذلك سحر تفتيت الأرواح وإظلامها، فعاد واستخدم علوم سحر الأجساد ليس فقط بغرض الاستعباد كما سبق ولكن بغرض الإمراض والإفساد بحيث يورِث النفس الغم والعذاب؛ فتنسى الرحمة التي هي أصل الكتاب، فيكون حظ صاحبها اليأس والقنوت والبعد عن الإله".

ترك الصوت المجال لـ"خالد" كي يتدبر ما سمعه، ثم عاد يردف: "كما وجه طلاسم تفتيت الروح وإظلامها؛ لبث المخاوف والأوهام في النفس، فيكون حظها القلق وعدم السكينة، ومن ثم اللجوء إلى أي أحد غير الإله طمعا في الحصول على الراحة المنشودة.. وفي الحالتين، يكون نصيب العقل الضلالات والأوهام، وينشغل بالتفكير في الأعذار للتهرب من طاعة الإله، وفي النهاية، يكون النصر للشيطان على الإنسان ولكن بطرق أخرى".

صمت الصوت لحظات، ثم قال: "ومع تغير أسلوب الحرب تغير الهدف منها، أصبح هدف الشيطان الآن السيطرة عليه عن طريق السيطرة على أفكاره وتوجيهها لتقود صاحبها إلى الضلال".

وبينما "خالد" ينصت إلى الصوت، وجد نفسه فجأة يخرج من نور ضبابي بخطوات واسعة، ليجد نفسه يسير في نور أسطع منه وأصفى، داخل بناء بيضاوي من الخشب السميك يسبح به في السماء، كما توجد بعض التشققات في جدران البناء البيضاوي نفسه، ومن الخارج يدور نور آخر حول البناء، يحاول أن يسد هذه التشققات.. رأى "خالد" نفسه يقف فجأة وينوي الصلاة، قبل أن يبدأ في صلاته تردد من حوله صوت هادئ لم يسمع مثله من قبل يقول له:

- اتجه إلى النور.

وجد "خالد" نفسه يجيب عليه وهو ينظر إلى أسفل قدميه، حيث يوجد خط مرسوم على الأرض أمامه:

- لكني أقف وقفة صحيحة بمحاذاة الخط.

- اتجه إلى النور.

أجابه "خالد" نفس الإجابة السابقة، ثم فجأة فُتح باب عن يمينه يشع من داخله نور عظيم غطى على جميع الأنوار السابقة، والصوت يقول:

- اتجه ناحية النور.

تحرك "خالد" ودخل من الباب في اتجاه النور.

فتح عينيه، ليجد نفسه ما زال على الأريكة خارج الخيمة، ولكن مع اختلاف بسيط، لقد أصبح يحيط به نور من السكينة والثقة والهدوء، والصوت يقول في عقله: "حررهم جميعًا من ظلام الأفكار، حررهم من سيطرة الجن والشياطين، حرر المعتقد من التلبيس والضلال، حرر العمل من الرياء, حرر النية من التوجه لغير الإله، واجمع الرفقاء ليكتمل البناء".

صمت الصوت لحظات قبل أن يستكمل كلامه ويقول: "استعد، يا خالد".

وقبل أن يسأله لأيِّ شيء يستعد، وجد الجواد الطائر يهبط أمامه، ثم قال الصوت: "امتطِ جوادك".

الفصل الثامن والثلاثون

امتطى "خالد" الجواد، الذي طار به في سرعة وقوة صعودًا في السماء، ثم زادت سرعته، ومع السرعة العالية اختفت تفاصيل الأشياء عن عيني "خالد"، ثم اختفت الأشياء نفسها وحل بدلًا منها مجال من الألوان المختلفة.. بعد فترة من الصعود توقف الجواد أخيرًا، وجد "خالد" نفسه يسبح في فراغ من النور، مرت لحظات، ثم طار الجواد بهدوء هذه المرة، لاح ل "خالد" شيء على مرمى البصر، حاول أن يخترق الفراغ ببصره ويتبن ماهيته، ثم بدأ يظهر له رويدًا، كان الجواد يتجه به إلى ما يشبه الأرض الصخرية متعددة الألوان.

اقترب الجواد منها بهدوء وحذر ثم هبط عليها وصهل بقوة، ترجل "خالد" عن ظهره ووقف ينظر حوله في تعجب، فقد كان الصخر أشكالًا وألوانًا وأحجامًا، والأرض نفسها تسبح في ضباب أزرق.

تلفت حوله في حذر، ثم انتابته الحيرة؛ فهو يقف وحيدًا إلّا من جواده.. ثم ظهر أحدهم يأتي من بعيد سيرًا على قدميه، ومع اقترابه بدأت تظهر ملامحه، أسرع "خالد" إليه واحتضنه في شوق، ثم قال:

- جدي.

مرت لحظات، ثم أزاح رأسه عن صدر جده، كست الحيرة وجهه "خالد" وهو يتطلع إليه، ثم قال:

– ماذا تفعل هنا؟ وما هذا المكان؟

كانت الجدية تبدو واضحة على وجه جده وهو يفتش ببصره في المكان، وكأنه يترقب حدوث شيء ما، سأله "خالد":

– ماذا هن..

لم يكمل سؤاله؛ لمح حركة سريعة عن يمينه، ثم أخرى عن يساره ومن خلفه، ثم بدأ يسمع صوت حركات تأتي من كل مكان حوله.. فجأة نهضت صخور مختلفة الأحجام والألوان واقفة على ما يشبه القدمين، متخذة هيئات قريبة من هيئة الإنسان.

في تلك اللحظة سمع "خالد" جده يقول:

– مرحبًا بروحانيات الكواكب.

بما يشبه الأعين تطلعت الصخور إلى الجد، ثم قال أحدهم:

– إنه أنت مرة أخرى! وفي وقت اجتماعنا المنشود! لماذا اخترت هذا الوقت بالذات لتأتينا فيه؟ ومن هذا الذي معك؟

رد عليه الجد بحدة واضحة:

– إنك تسأل الكثير من الأسئلة، في حين أنك من يجب أن يُسأل، أما من معي فهو حفيدي "خالد"، وقصدنا بالطبع المجيء إليكم في وقت اجتمعاكم ليسمع الجميع ما سنقول.

غلب على صوت الجد الضيق وعلا قائلًا:

– أنتم ما زلتم توجهون أفعالكم لضرر الإنسان، لم تفلح معكم لا التحذيرات السابقة ولا الحروب.

– ألا تفهم أنكم أنتم من تستخدمون العلوم والطلاسم لتوجيهنا لضر شخص ما أو نفعه.. أنتم من تقومون بالرصد، ونحن فقط نؤدي ما يطلب منا.

ردَّ عليه الجد بقوة وحزم:

– لكنكم لا ترفضون، ولا تتوقفون، بل تستمرون ربما لسنوات في ضركم للمرصود، ثم تطور الأمر ببعض المخلوقات – تحت سمعكم وبصركم وغطائكم – أن يطلبوا من البشر باسمكم أن يقوموا ببعض أفعال الكفر والضلال ومعصية الإله، بل يوهمونهم بأنكم أنتم من تطلبون ذلك منهم لجلب الخير والبركة.

رد عليه الكائن الصخري بصوت هادئ:

– أنت تحملنا أيضا مسؤولية ما يقولون، نحن نفعل ما خُلِقنا له.

كان "خالد" يستمع إلى حديث الجد مع الصخرة في تركيز شديد عندما سمع الصوت بداخل عقله يقول:

- كتاب الرحمة والنور بداخلك هو فطرتك.. تكلم بما يمليه عليك قلبك ولا تخف.

فتح "خالد" فمه وتكلم بصوت هادئ عميق مبتسمًا تلك الابتسامة الصافية:

- نعم لقد أخطأتم.

نظر الجميع إليه، وهو يُكمل في ثقة قائلًا:

- عندما تظنون أنكم تملكون النفع والضر فأنتم مخطئون، إن النفع والضر بيد الإله وحده، وأنتم مجرد أسباب.

صمت لحظات، جال خلالها ببصره بينهم يتفحصهم، ثم قال بلهجة حازمة:

- أين أرواحكم المسبحة بحمد الإله طول الوقت؟

ظهر من بينهم كائن صخري أزرق يشع بضوء خافت جميل، تقدم إلى الأمام وهو يقول:

- ها أنا ذا.

ثم تبعه آخر وآخر، وحين تقدموا جميعًا إلى الأمام خاطبهم "خالد":

– المفروض أنكم المسؤولون والمهيمنون، فكيف خرجت الأمور عن سيطرتكم؟ لماذا تركتموهم يقومون بأعمالهم ويشتركون في إلحاق الضر بالإنسان؟ بل منهم من كان يأمر بالمعصية والضلال.

بدا لـ"خالد" أن ذلك الكائن الصخري الأزرق يتنهد ويقول:

– لقد سئمنا معاصي الإنسان، كبره وغروره، ضعفه وعبادته للجان والشيطان، سئمنا تقوله على الإله.

أشفق "خالد" على محدثه الصخري؛ لقد بدا على وشك البكاء عندما وصل بكلامه إلى هذه النقطة.. لم يمنعه ذلك الشعور أن يقول بحزم واضح:

– لقد انتهى ذلك العهد تمامًا، بإذن الإله من الآن وصاعدًا تعود الهيمنة للروح المسبحة على باقي روحانيات الكواكب، وبإذن الإله يُمنع تخويفهم للإنسان ويُقطع سبيل طلباتهم وأوامرهم له بالقيام ببعض الأعمال تحت أي مسمى كان.

حاولت بعض الروحانيات الأخرى من الصخور الاعتراض، ولكن أبدًا لم يستطِع أي أحد منهم قول شيء؛ لقد لُجِّمت أفواههم.. ثم أكمل "خالد":

– ستؤدون أدواركم التي خُلقتم لها، والتي ليس من ضمنها أذية الإنسان وإخضاعه أو تخويفه وإضلاله.

مع انتهائه تحررت روحانيات الكواكب، واستطاعت الكلام مرة أخرى، فقالوا جميعا في صوت واحد:

– هي الإشارة ولا شك، إنه أنت، لقد عاد الإنسان.

تكلمت الصخرة الأولى التي كانت تجادل الجد بصوت خافت مطأطئة رأسها:

– لكن ما زالت علوم الطلاسم منتشرة في الأرض، وما زال السحرة يستطيعون ربطنا بشخص ما، لجلب منفعة له أو مضرة.

ابتسم "خالد" لفطنتها، وأيضًا للتغيير البادي في كلامها، ثم علا صوته مرة أخرى وهو يقول بحزم:

– من الآن وصاعدا، من استعان من الإنس بالإله الخالق وحده فلن تستطيعوا أن تلحقوا به ضرًا، ومن سأل الإله الخالق وحده مسألة فستكونون له عونًا، لقد قُضي الأمر.

قال الجميع في صوت واحد:

– سمعنا وأطعنا.

نظر الجد إلى حفيده مبتسمًا وقد سره ما فعله؛ لقد أكمل ما بدأه هو نفسه، ثم قال:

– حان وقت رجوعك إلى الأرض.. صحبتك السلامة، يا بني.

امتطى "خالد" ظهر جواده الذي طار به عائدًا كما جاء.

الفصل التاسع والثلاثون

هبط الجواد في المكان الذي توقعه "خالد" بالضبط، على حافة الشلال حيث نهاية النهر.. ترجل عن صهوته وجلس على الأرض، ثم استلقى على ظهره يتطلع إلى السماء كما يفعل مؤخرًا، يفكر في أمر روحانيات الكواكب.. تذكر أمر البوابات، وكيف تؤثر الظلمة بداخلها على الإنسان.

قطع حبل أفكاره الجواد الذي صهل فجأة، التفت إليه ليرى ماذا هناك، رآه يرفع رأسه عاليا، فبدوره رفع بصره، ليجد كتابًا يشع منه النور يهبط عليه من السماء، اعتدل في جلسته، وهو يترقب بلهفة نزوله.

هبط الكتاب بين يديه، أمسكه "خالد" فشعر بكيانه كله يهتز وهو يقرأ العنوان المسطر عليه: "كتاب الفرقان.. فيه الرحمة والنور"، فتح الكتاب وأخذ يقرأ ما جاء فيه، ودمعت عيناه واقشعر بدنه مما قرأ ومما فهم منه.. لقد فهم معنى أن يكون الإنسان حر الاختيار، معنى التكليف، التوحيد، فهم أن الإله يحكم ملكه بالرحمة وليس بالبطش والقوة، وفهم معنى الحمد، معنى الذكر والنور المصاحب له، فهم أن الإله قد خلق بداخل الإنسان نورًا، وأن كتاب الرحمة فيه نور يهدي النور بداخل الإنسان إلى نور الإله.

كان الكتاب يطير عاليًا ليعود إلى السماء عندما قام "خالد" من مكانه وركب جواده، وفي هذه المرة، كان عليه أن يوجه الجواد، ويحدد المهمة، فهو من رسم خريطة النجاة، صهل الجواد كأنه يسأله إلى أين.

– إلى الأسفل، يا صديقي، حيث توجد البوابات.

صهل الجواد مرة أخرى وطار إلى أسفل بسرعته العالية.. وكما تعلم "خالد" من تجربته مع الطيران بجواده، مال بجذعه إلى الخلف ليحافظ على توازنه.. ثم توقف الجواد ودار حول نفسه واخترق ماء الشلال عند نقطة معينة، وهبط على أرض الممر الذي يقود إلى البوابات.

وقف "خالد" في مكان ترجله، ثم علا صوته قائلًا في ثقة:

– إن الإله خلق الإنسان حرًا في اختياره، كما أنه يحكم ملكه بالرحمة، ومن باب رحمة الإله فأنا أطالبكم بالإبقاء على حرية الإنسان كما أرادها الإله، وغلق تلك البوابات إلى الأبد.

انطلقت أصوات الضحكات الساخرة من حوله، وأحدهم يقول في استنكار وبصوت حاد له صدى ينفذ إلى النفس عميقا:

– من أنت حتى تقرر ما يجب علينا فعله؟ من أنت حتى تحكم علينا؟

– أنا الإنسان خليفة الإله و سيد الأكوان، أنا من خلقني الله حرًا لأعرفه وأعبده بالاختيار.

سرت همهمة عالية، ثم فجأة صرخ صوت ما صرخة عالية تكاد تصم الآذان، ومع تلك الصرخة التي بدت وكأنها إذنٌ من نوع ما، هبت رياح ساخنة شديدة وفي نيتها أن تقتلع "خالد" والجواد من مكانيهما إلى الأبد.

لكن "خالد" قال بثقة وثبات:

– بسم الإله الواحد الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

أخذ يكررها بصوت عالٍ، فأحاطت هالة من النور بجسده والجواد، لتهدأ الريح ويسود الصمت المكان.. تقدم داخل الممر الذي يقود إلى البوابات السبع، تحيط به هالته والجواد يصهل كأنه يدعو له بالتوفيق، ثم سمع صوت صراخ يأتي من الأسفل، مع صوت صرير أبواب وهي تقفل، ثم بدأت تنطلق أصوات تستغيث:

– الرحمة، أيها الإنسان.

رد "خالد" عليهم قائلًا:

– أنتم أصوات المكر والخداع.

تحولت التوسلات إلى ضحكات تدوي في المكان مع صوت آخر يهدد:

– سوف أقتلك، أيها الإنسان.

صمت "خالد" تمامًا وأغلق عينيه وهو يقول في تضرع وتوسل:

– يا إلهي، يا رحمن، يا من تستحق أن تعبد وحدك دون سواك، ارحم الإنسان واقطع عنه ضر ما يوجد خلف تلك البوابات، اقطع بينهم الروابط، وأغلق من دونهم المجالات.

ازداد نور الهالة حوله حتى أنه بدأ يشع منها وينفذ إلى كل مكان، سمع أصوات صرخات حقيقية؛ مما جعله يفتح عينيه والأصوات تقول:

– لاااااااااااااااااااا.. لا يمكن.

وبدأ صوت إقفال الأبواب يرج المكان، سبعة أبواب أغلقت تباعًا، وحين وصل العد بـ"خالد" إلى رقم سبعة تهللت أساريره وقال:

– الحمد والشكر لك يا إلهي.

خرج "خالد" من الممر فصهل الجواد، قفز يعتلي ظهره ثم التفت وقال:

– بحق كلمات الله التامات، يغلق هذا الممر كما أغلقت جميع البوابات.

شعر بالأرض تهتز تحت قدميه، فطار الجواد به عاليًا في سرعة وخفة، وتحركت الأرض من أسفله في هذا الجزء وارتفعت، لقد كان هذا الجزء من الأرض نفسه هو الباب الذي يغلق الممر، وقد كان، وانغلق الممر.

****

في الصباح التالي، وجد صديقيه يقفان أمام خيمته، بادره نجيب قائلًا بلهفة:

– ماذا فعلت يا "خالد"؟ الجميع في انتظارك عند العين ويطلبون حضورك على الفور.

قال "خالد" بحيرة:

– الجميع!

رد عليه "مراد" قائلًا:

– نعم، كل سكان القرية ينتظرونك عند العين ومعهم الزعيمان.

الفصل الأربعون

وصل ورفيقاه إلى حيث العين، وبنظرة واحدة أيقن أنهما لم يكونا يبالغان على الإطلاق، فجميع سكان القرية بطائفتيها وزعيميها كانوا يقفون جميعًا حول العين، وربما لأول مرة يقفون دون أن يلقي أحدهم بالًا إلى من يقف بجواره، أهو من طائفته أم لا، تقدم ثلاثتهم من الزعيمين فقام زعيم طائفة "مراد" قائلًا بصوته الناعم:

– نريد حكمك الآن، يا "خالد".

وقام زعيم طائفة "نجيب" وهو يقول بصوت هادئ:

– نعم، الآن.

وقف "خالد" وعلى وجهه يَتجلَّى الصفاء، وبصوت يحمل الصدق قال:

– إن الجان يريدون أن يكونوا الأسياد، والشيطان يريد أن يكون السيد، والناس يتنازعون فيما بينهم على السيادة.. الجميع يريد السيادة في الأرض من دون أن ينظر إلى معناها، إنها تكليف وليست تشريف، إنها تكليف من الإله الخالق وعهد معه، بأن المكلَّفين عليهم الطاعة والعبادة، لا يشركون به شيئًا، لا يعبدون إلا إياه، لا يستعينون بغيره فهو وحده الإله والرب.. لقد خلق الإله الإنسان على أحسن صورِ الخلق، جعل فيه الروح والجسد والنفس، ليس فقط ليعيش بروحه في عالم الملكوت ويستمتع هناك، ولا ليعيش فقط بالجسد يتلذذ في عالم المُلك والماديّات، بل

ليحيا بهما معًا في سلام ونعيم.. لو أرادنا الإله أرواحًا فقط لخلقنا ملائكة، ولو أرادنا أجسادًا فقط لخلقنا بهائم، لكنه بحكمته خلقنا على هذه الهيئة لنخرج مكنونات ذواتنا، وليعطينا الفرصة لنرى أثر أفعالنا، ماثلة أمام أبصارنا؛ لنتعرف عليه وندرك عظمته وقوته ورحمته، ونتعرف على أسمائه وصفاته وندعوه ونلجأ إليه، ونستعين به ونطلب إذنه، فكل شيء ملك يديه.. لقد أخرجنا الإله من العدم إلى الوجود وحدد لنا طريقًا مستقيمًا لنسلكه؛ حتى نصل إلى الحياة الأبدية الكاملة.. إن الحياة هي الفرصة ليظهر من يستحق الاستمرار في الوجود ممن لا يستحق، وإلا العزل فيما يشبه الفناء.

صمت "خالد" لحظات ليرى تأثير كلامه عليهم، عندما همَّ بالكلام مرة أخرى سمع صوت أحدهم يقول:

- أنت تريد الملك علينا ليس إلا!

نظر في اتجاه صاحب الصوت فوجده "سامر"؛ فرد قائلًا:

- بحق الإله، لا أريد ملكًا عليكم، بل أن نحيا جميعًا في مملكة يكون الإنسان فيها السيد كما أراد الإله له، ليس بلونه ولا حسبه ونسبه ولكن بقلبه وتقواه، مملكة يكون فيها الجميع متساوون كأسنان المشط، والسيد فيها يكون بأفعاله وعبادته وطاعته للإله.. يعود فيها الإنسان هو السيد كما أراده الإله أن يكون، ولكي يكون السيد عليه أن يتحرر من عبادة أهوائه، ويتحرر من عبادة أفكاره، ويتحرر من

عبادة الجن والشيطان.. لسوف يتحرر حين لا يخشى أحدًا إلا الإله وحده، عندما يؤمن بأن المخلوقات جميعًا لا تملك له نفعًا ولا ضرًّا.

انطلق صوت "مراد" أعقبه "نجيب" وهما يطلبان من "سامر" الصمت إلى الأبد وقد انكشف لهما مدى كرهه وحقده؛ مما شجع الحضور على التأمين على كلام "خالد"، صاحوا في صوت واحد:

– لا إله إلا الإله الخالق ولا رب سواه.

ثم علا أحد الأصوات يسأل "خالد":

– ماذا علينا أن نفعل، أيها السيد؟

قال "خالد" في حماس موجهًا كلامه لهم جميعًا:

– ابنوا الجسور بين ضفتي النهر، مدّوا الروابط بينهما ولتختلط الطائفتان لتصبحا طائفة واحدة تحيا في سلام، لقد أنهيت رصد روحانيات السماء وطلاسمهم، كما أغلقت بوابات الأرض وأسحارهم.

بدأ أهل القرية يتعاونون فيما بينهم؛ ليمدوا الروابط بين ضفتي النهر، كما أخذوا في بناء الجسور بينهما.. ثم توقف الجميع فجأة؛ وقد انشغلوا بمتابعة الجواد الطائر يهبط من السماء بجوار "خالد" الذي اعتلى ظهره، وطار به فوق الرؤوس، ظهر السرور على وجوههم وهم يدعون له بالتوفيق والفلاح.

طار الجواد بحمله قاصدًا الشلال حيث ينتهي النهر، لقد بدا ل"خالد" وجوب فعل شيء آخر هناك.. عندما وصل إلى وجهته هبط عن جواده وتقدم من حافة الأرض، كان المشهد عجيبًا بحق، المياه تفور وتعلو من أسفل الشلال إلى أعلى أكثر من ذي قبل، أخذت تعلو وتعلو حتى كاد أن يحدث فيضان مرة أخرى، هاج الجواد وماج وهو يصهل في قوة، فقال "خالد" في صوت هادئ عميق: "اهدئي أيتها المياه".

هدأت المياه على الفور، فصهل الجواد، وصاحبه يتمنى لو تُردم تلك الأرض، ويردم معها مكان الشلال والبوابات من أسفله إلى الأبد.. ثم ظهر الشيخ يحمل عصاه وظهر معه تلاميذه السبع، كان كل منهم يحمل في يديه حفنة من ثلج الأرض حيث يقع الكوخ، ثم رمى الجميع ما بأيديهم في مصب النهر، ورفع الشيخ عصاه قائلًا بصوته الهادئ العميق: "بإذن الإله يختفي الشلال، وبقدرته يلتئم في الأرض الصدع".

خرج من العصا نور أضاء المشرق والمغرب، وجهه الشيخ ناحية المصب، فاندفع النور يضرب الماء، وفجأة برزت من الماء كتل كبيرة من الثلج أخذ حجمها يكبر حتى غطى المكان تمامًا، ثم تصلد وتحول إلى ما يشبه الأرض، ثم امتد أثره إلى النهر نفسه.

****

بدا على "خالد" السرور وهو يقف بجوار الشيخ فوق ما كان منذ لحظات أرضًا منخفضة، تقع أسفلها البوابات السبع، وقد صارت أرضًا صلبة في نفس مستوى باقي الأراضين، نظر الشيخ إليه وهو يقول: "لقد أنهيت سحر الأجساد، كما أنهيت سحر الأنفس والأرواح، ثم أنهيت سحر الأفكار، والآن عليك أن تعود إلى حياتك، لقد حان موعد عودتك، احتار "خالد" من كلام الشيخ إلا أنه لم يسأله عن معناه".

امتطى جواده وطار به قاصدًا العين، عندما وصل إليها أصابته المفاجئة؛ لقد تغير كل شيء هناك، صارت العين بحيرة دائرية كبيرة تفيض بالماء، تصطف الخيام في دوائر من حولها، بحيث تتسع الدوائر كلما ابتعدت الخيام عن البحيرة، وما زاد المشهد جمالًا هو مجاري الماء التي كانت تنبثق من البحيرة باتجاه مستقيم فيما يشبه أشعة الشمس وهي تغادر شمسها.. يجري الماء فيها ليسقي جميع الخيام، ويسقي الأراضي الخضراء، أحصاهم "خالد" أربعة عشر مجرى.

بدا المنظر بديعًا في عينيه، فتطلع مشدوهًا إليه، لكن فجأة تموجت صورة الأشياء من حوله ثم بدأت تتلاشى، وصوت يأتي من بعيد وصاحبه يقول في فرحة: "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".

واختفى المشهد من حوله تمامًا، بدأ "خالد" يفتح عينيه في بطء، والصوت نفسه يكمل في سعادة ويقول: "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون".

شعر بإعياء شديد، وجسده الهزيل يأن من التعب، ثم فتح عينيه فهجم عليهما ضوء ساطع فعاد وأغلقهما في سرعة، ثم أحس بجلبة من حوله، وتسللت بعض الكلمات إلى أذنه: ميَّز بعضها، لقد كان أحدهم يقول بصوتٍ باك:

– الحمد لله، الحمد لله.

أعقبه صوت آخر يقول:

– أحضروا الطبيب المناوب بسرعة، لقد استيقظ "خالد".

فتح عينيه في وهن مرة أخرى، فرأى رجلًا يرتدي ملابس بيضاء ينظر إليه مبتسمًا ويقول:

– حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

لم يكن عقله بالصفاء الكافي ليستوعب ما يحدث من حوله، لكنه حاول في إصرار أن يفعل، سمع الرجل في المعطف الأبيض يقول:

– لقد بدأ النبض والضغط ينتظمان.

التفت إليه، وجده ممسكًا بدفتر في يديه يقرأ منه بصوت تغلبه الدهشة: "الاسم "خالد نور الدين"، السن ثمانية عشر عامًا، تاريخ دخول المستشفى".

توقف فجأة عن القراءة قبل أن يلتفت إلى شخصين يجلسان عن يمين "خالد" قائلًا في دهشة: "إنه في غيبوبة كاملة منذ سبعة أيام!".

لم ينتظر منهما جوابا وهو يكمل القراءة ويقول: "التشخيص: هممممم مع صدمة قوية أدت إلى غيبوبة تامة".

كان الطبيب المناوب ما يزال يقرأ البيانات المدونة على كارت التعريف الخاص بحالة "خالد"، حين استعاد الأخير وعيه تمامًا وفتح عينيه عن آخرهما، ثم التفت في وهن ناحية الشخصين الذين يجلسان عن يمينه، ليجد أخاه الذي كان يقرأ سورة ياسين يضحك في سعادة غير مصدق أن "خالد" قد أفاق وعاد، وبجواره تجلس أمه تبتسم في حنان، وعيناها ممتلئتان بدموع الفرح وتردد: "الحمد لله، الحمد لله".

بدأ يستوعب الأمور من حوله، ثم ابتسم وهو ينظر إلى أخيه وأمه نظرة امتنان وهما يتمتمان بكلام يعبر عن مدى فرحتهم بعودته وبشكرهم لله.. ثم تذكر شيئًا ما جعله يعقد حاجبيه في تفكير عميق، لقد تذكر أن جده توفي منذ ثلاثة أعوام، وفجأة تذكر كل شيء، تذكر ما حدث في تلك الليلة منذ اسبوع كامل.

كان مستغرقًا في النوم في غرفته، ثم فتح عينيه فجأة وقد تملكه خوف شديد، ثم سمع صوتًا يشبه الهدير يكاد يفجر رأسه، وفي تلك اللحظة، هجم عليه كيان أسود مخيف كاد معه قلبه أن يتوقف، ثم شل الكيان حركته، فأحس كأن رأسه وجسده قد شطرا إلى نصفين.

حاول عبثا التملص من هذه القوة المظلمة التي تسيطر عليه دون جدوى، ثم شعر بالكيان يتسلل إلى نفسه، ثم غاب عن الوعي.. دخل في غيبوبة عميقة لسبعة أيام لم يفِق منها إلا الآن.

وبينما يدور ببصره يتطلع إلى محتويات الغرفة في محاولة منه أن يستوعب الأمر أكثر، سمع صوتًا يأتي من داخل عقله يشبه صوت جده: "انظر عبر باب الغرفة".

تطلع "خالد" إلى الباب المفتوح، ثم عبره ببصره إلى الخارج، فوجد شيخًا يرتدي جلبابًا أبيض، شعر شاربه ولحيته أبيض تمامًا، تُزين وجهه ابتسامة صافية، وتحيط به هالة من النور، ويقف بجوار الشيخ جواد أبيض جميل له جناحان كبيران ويخرج من منتصف جبهته قرن واحد.

تمت بحمد الله.

الخاتمة

بقلم شوقي حنفي محمود:

هي رحلة داخل نفس إنسانية، توضح كيف يمكن أن تتعافي هذه النفس من الأسباب الكبرى للضلال، رحلة جهاد شاقة وعظيمة في البحث عن الطريق السليم والقويم.. رحلة عبرت بنا إلى أصول المسلمات التي نحيا بها وأحيانًا لها، وفتحت عقولنا على ما تعنيه هذه المسلمات، وما تحمله من خلفيات كنا بعيدين كل البعد عن التفكير فيها.

كم منا سمع كلمات السحر، الرصد، الروحانيات، الكواكب، المسٌّ، اللبس، الحقد، الحسد، الكره؟ لكن مَن منا يعرف أصل هذه الكلمات؟ أو يعرف كيف تعمل وكيف تستخدم؟ أو يعرف كيف تؤثر علينا وفي أي عضو ومن أية ناحية؟ ومَن منا يعرف كيفية التخلص والشفاء منها؟ أو يعرف كيفية الوقاية منها وكيفية غلق بواباتها؟

إنها رحلة رشد وهداية توضح مراحل التطور المعرفي والعقلي للنفوس الإنسانية حتى تكون مؤهلة لمعرفة الله سبحانه.. وما هي مصادر هذه المعرفة التاريخية الثابتة؟ هي رحلة تظهر لنا في أعمق المعاني كيفية مد جسور الربط بين المتباينات، بين الظاهر والباطن، بين الملك والملكوت، بين المعقول واللا معقول، بين المرئي واللا مرئي، بين المُشاهَد والغَيبي، بين علاقة السماء بالأرض وكيف

تحدث، كيف أن النفس الإنسانية هي الوحيدة المؤهلة في هذا الكون لتكون برزخًا بين العالمين ولهذا فإن الإنسان هو السيد.

إنها رحلة الإنسان السيد في إثباته لباقي المخلوقات أنه المستحق للسيادة والمُلك والخلافة لأنه تنفيذ لأمر الخالق وهدايته، هو الوحيد الذي فهم مراد الخالق من الخلق، فهم معنى العبادة ومعنى الحمد ومعنى الذِّكر والنور المصاحب له.

إنها رحلة تتكلم عن النفس والروح والجن والملائكة والروحانيات، ومحاولات تأثيرها على الإنسان الذي يعتقد الجميع أنهم يعرفون مداخل نفسه ومخارجها، وبالتالي يستسهلون السيطرة عليه.. هي رحلة تظهر فرضيات يتم التعامل بها في هذا العالم أقرب إلى المنطق الذي يرتضيه العقل، إنها رحلة قد صيغت في عبارات تتفجر فيها المعاني الجديدة كليا على أفهامنا وإدراكنا حتى تدفعنا دفعًا إلى إعادة النظر في كل المسلمات التي نحيا بها.

إنها رحلة البشرية منذ آدم إلى أن تقوم الساعة في التطور والرشد حتى سلمت بكل معاني التسليم لشريعة الإسلام والرسول الخاتم الكامل الأرزاق والكامل الأنوار والعظيم الأخلاق والذي وهبه الله القدرة الكاملة على التصحيح والتقويم فلم يدع بابًا للخير إلا فتحه ودلنا عليه، ولم يدع بابًا للشر إلا أغلقه وحذرنا منه.

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرا عدد ما وسع علم الله، هنيئًا لقراء هذه الرحلة من المتعة العقلية والخيال الجامح والعبارات المتفجرة والمعاني الجديدة وهنيئًا لعالم القصة والرواية هذا المنحى الجديد.

المحتوى

المحتوى

المحتوى